التغيير في ضوء القرآن الكريم

د/ نواف مزيد حسن السريحي
دكتوراه الشريعة الإسلامية

ملخص البحث

يجلو لنا هذا البحث كيف تتحقق عملية التغيير من الضلالة إلي الهداية وذلك من خلال وضع منهج كامل وخطة شاملة ، تتمثل إستراتيجيتها في اتخاذ إجراءات لازمة وتحديد وسائل وأهداف صحيحة منها :
الوقوف علي معاني القرآن الكريم ، وأن تطبق في السلوك ، وأن يكون هذا التنفيذ فعلاً واعيا مع إدراك حقيقة الفعل الذي يمارس وبشكله الصحيح والغاية التي يحققها القيام به .
كما بين البحث أهمية الوقوف علي الظواهر المراد علاجها ، والمشكلات التي يريد استبدالها ، بكل دقة وإحاطة وشمول ، لما في ذلك من ضمان فعالية الإنجاز وإتمام العمل بنجاح .
ومن عوامل التغيير التي حرص البحثق علي بيانها الإعتناء بالإنسان وغرس معاني القيم والمبادئ في ذاته والتركيز علي تكوينة عقائدياً وسلوكياً وعلمياً فهي تؤدي إلي تعميق البعد الروحي والاتصال بالله تعالي
كما يهدف البحث إلي بيان منهج القرآن الكريم في التدرج وعدم نزوله جملة واحدة لحكم جليلة ومقاصد عظيمة ، تتعلق برسول الله صلي الله عليه وسلم ، بصفة خاصة ، حيث إثبات رسالته صلي الله عليه وسلم ، وإقامة الدليل علي إعجاز القرآن الكريم ، وتعليمه بأسلوب هو غاية ما توصل إليه أهل التربية في حفظ النصوص الطويلة وتسهيل فهمها .
كما يهدف البحث إلي بيان الحكم من نزوله مفرقاً التي تتعلق بالأمة بصفة عامة حيث انتزاع العقائد الباطلة ومعالجة العادات القبيحة ، وسياسة التدرج وإبراز العظات والتجاوب مع الأحكام وغيرها .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علي سيد المرسلين ، محمد صلي الله عليه وسلم ، وعلي آله وصحبه الطيبين الظاهرين ، ومن سار علي دربه إلي يوم الدين ، أما بعد :

فالدارس لتاريخ الدعوة الإسلامية ونزول القرآن الكريم منجما علي قلب النبي صلي الله عليه وسلم موجهاً ومقوماً لمسيرتها ، يرى بوضوح أن الإسلام عندما أراد أن يغير الواقع الجاهلي ويقيم مقامه المجتمه الإسلامي ، سلك في تحقيق ذلك منهجاً متكاملاً منظماً ، لأن التغيير ليس من الأعمال الهينة ، وهو كذلك ليس من قبيل الترف الفكري أو الارتجالي ، وإنما هو من الأعمال الدقيقة العميقة وخصوصا ً إذا علمنا أحوال العرب عند نزول القرآن الكريم ، والظروف الصعبة التي كانوا يتعاملون معها : الدينية – منها – والاقتصادية – والاجتماعية والسياسية ، وماهو غير ذلك من القضايا التي تمس حياتهم ، وكيف وصلت بهم الحال إلي درجة من التدني في المبادئ والقيم .

لذا فأن ما حصل من عملية التغيير في مثل هذا المجتمع ، تتطلب نوعا من الإدارك والوعي المتكامل والعمل المستمر ضمن ضوابط لا غنى عنها ، وإلا فإنه لا شفاء من الداء العضال الذي ينخر ذلك الواقع ، وسيبقي متراوحا ً في مكانه ، وسيفشل في تحقيق مشروعه ، والمحصل لهذا العمل في التعامل مع هذا الواقع هدر للوقت ، ومزيد من تضييع الجهود ، وجعله عبثاً وتشتيت الإمكانات وتمكين الأمراض الفتاكة من الاستفحال وصعوبة العلاج ، والاستعصاء علي حلول جذرية واقعية ، وتسارع بشكل يجعل التحكم فيها أمراً عسيرا .

وانطلاقا من هذه الثوابت ، وتلك المعطيات ، جاء القرآن الكريم متوافقا مع المنطق التغييري ، فأبدع في التخلص من هذه الآفات والانحرافات ، بل أكثر من ذلك قام علي تجفيف منابعها في الضمير من خلال وضع منهج رباني ، يقوم علي أسس ممكنة وركائز متينة ثابتة ـ علي خلاف المناهج الأخرى التي هي من نتادج الرأي واستعمال الفكر التي تتعامل مع الأمراض الاجتماعية المهلكة ، فتقرها صاغرة تحت الأمر الواقع علي تبريرها كما جري في ظواهر متعددة .

ومن هنا ندرك حقيقة لماذا لم توفق جهود التغيير الحديثة في تحقيق ترقي المجتمعات عموما وتوصلها إلي ما تصبوا إليه من السعادة والاستقرار والأمن والأمان والسلام ، وغير ذلك من الأمور المهمة

التي تهفوا إليها الأمم ، رغم ضخامة المسعى وتوفير الدواعي والأسباب وبذل الطاقات الهائلة ، وحصر الجهود العظيمة في سبيل معالجة قضايا ومشكلات جسيمة تنخر في جسم الأمم .
أجل لقد اتسمت تلك الجهود الجبارة بعدم النجاح والفلاح ، وكأنها تسير إلي الوراء أو تدور حول نفسها بل أصبحت عبارة عن جعجعة بدون طحين .
ترى ما اخلل حتى كانت هذه النتائج المزرية ؟ إنه القصور المنهجي الذي يشكل أبرز أسباب الاختلال إن الفعل التغييري الذي يؤتي ثماره ، ويكون آثره موفقا هو المنهج الذي يتجاوز كل المناهج الوضعية القاصرة والعاجزة ، وذلك بسبب عزل مناهجها للغيب والوحي الإلهي كمصدر أساس للإدراك والفهم ، علي خلاف المنهج الذي سلكه القرآن الكريم وطبقه رسول الله صلي الله عليه وسلم ، في توجيه وتنفيذ التشريعات التي تضمنها الكتاب العزيز في كل ناحية من نواحي الحياة ، حتى كان لها الآثر في واقع العرب وحياتهم ووصلت باعتصامها لهذه المبادئ الرشيدة والتوجيهات السديدة إلي الكمال اللائق بها / قال الله تعالي
(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس) سورة آل عمران آية (١١٠) وهذا ما سأوضحه في هذا البحث المتواضع الذي سميته (التغيير في ضوء القرآن الكريم) .
ونظرا لأهمية هذا الموضوع ، وخصوصا إذا علمنا أن كثيرا من العلماء والمفكرين – قديما وحديثا- قد اهتدوا إلي ضرورة وأهمية التغيير ، ليس في العالم العربي والإسلامي فحسب بل العالم كله .
ونظرا لذلك ، فإن أقدم هذا البحث عسي أن يستفيد منه من يطلع عليه ويسترشد بما فيه من ترتيب أفكار علي الرغم من علمي بتوافر الأعمال في هذا المجال ، فما تغيب عن ذهني جهود علمائنا الذين لم يقصروا في ذلك ، فجزاهم الله كل الخير ، فمعذرة إليهم عما جئت أقدمه من محاولة متواضعة في دراسة هذا البحث الذي أبتغي به الأجر والثواب ، فكل طالب علم له نصيب يناله .
وقد كانت خطتي في هذا البحث تحقيقا للغرض المنشود أن جعلته في :

- مقدمة ومبحثين وخاتمة .
- المبحث الأول : الأطر العامة لدراسة منهج القرآن في النزول ويتضمن مطلبين :
- المطلب الأول : تعريف المنهج وبيان أهميته .

- المطلب الثاني : التدرج في عملية الإنجاز والآثار التي تترتب علي ذلك .

ويتضمن مطلبين :

- المطلب الأول : معنى التدرج والدليل عليه من كتاب الله تعالي .
- المطلب الثاني : أهمية التدرج والآثار التي تترتب عليه ويتضمن قسمين .
- القسم الأول : تجاوب الوحي مع الرسول صلي الله عليه وسلم ويتضمن ثلاث مقاصد .
- المقصد الأول : إثبات رسالة الرسول صلي الله عليه وسلم ودليل اعجاز القرآن الكريم .
- المقصد الثاني : تثبيت فؤاد النبي صلي الله عليه وسلم .
- المقصد الثالث : منهج القرآن الكريم في تعليم النبي صلي الله عليه وسلم .
- القسم الثاني : تجاوب الوحي مع المؤمنين ويتضمن مقاصد رئيسية مهمة منها :
- المقصد الأول : انتزاع العقائد الباطلة ومعالجة العادات السيئة .
- المقصد الثاني : سياسة التدرج في التشريع ومنهجة في بيان الأحكام .
- المقصد الثالث : سياسة التدرج في إبراز العظات .
- المقصد الرابع : سياسة التدرج في التجاوب مع الأحداث والنوازل.

المبحث الأول

الآطر العامة لدراسة منهج القرآن في النزول

يقتضي منهج البحث العلمي ومن أجل تحقيق الغرض من دراسة موضوع هذا البحث أن أتحدث عن بعض المفاهيم المتعلقة به ، ولصلتها به صلة وثيقة ، لكي تكون نبراساً ومنارة يهدي علي ضوئها معرفة الوصول إلي الحق الذي تطمئن إليه القلوب وترتاح إليه النفوس.

المطلب الأول

تعريف المنهج وبيان أهميته

- أولاً : تعريف المنهج :

جاء في لسان العرب . [1] نهج / طريق نهج بين واضح وهو النهج وأنهج الطريق ، وضح واستبان وصار نهجاً واضحاً بيناً قال يزيد بن الخذاقا العبدي

ولقد أضاء لك الطريق وانهجت سبل المكارم والهدي تعدي

أي : تعين وتقوي والمنهاج – الطريق الواضح ، ونهجت الطريقف أبنته وأوضحته وسلكته .

وقال الراغب الأصفهاني . [2] المنهج الطريق الواضح ، ونهج الأمر وأنهج وضح ومنهج الطريق ومناهجه قال الله تعالي " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا " سورة المائدة آية ٤٨ .

وجاء في مختار الصحاح [3] نهج الطريق أبانه وأوضحه ونهجه – أيضا – سلكه والمنهاج الطريق الواضح .

---

[1] ابن منظور / لسان العرب / تصحيح أمين محمد عبد الوهاب وزميله محمد العبيدي / دار إحياء التراث العربي – بيروت / الطبعة الثالثة ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩م / فصل النون / نهج . وسأشير إليه لاحقا لسان العرب .

[2] الراغب الأصفهاني / أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل ت ٥٠٢ هـ / معجم مفردات الفاظ القرآن الكريم / ضبطه : إبراهيم شمس الدين – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولي ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م / ص ٥٦٢ / وسأشير إليه لا حقا – معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم .

[3] الرازى / الإمام محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي / مختار الصحاح / دار الفكر العربي / بيروت ٢٩٧ .

أخلص مما بينت أنفاً إلي أن كلمة منهج في اللغة يدور معناها حول مفهوم أساس هو : الطريق الواضح الموصل إلي غاية معينة ، وهدف مقصود ، والمراد به هنا الطريق المؤدي إلي التعرف علي حقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن علي سير العقل وتحدد عملياته ، حتى يصل إلي نتيجة معلومة . [٤] أو هو مجموعة أو جمل من الخطوات المدروسة أو العمليات المنظمة التي تقوم علي مبادئ وقواعد للوصول إلي تحقيق هدف محدد . [٥]

- ثانيا : أهمية المنهج :

من الحقائق الثابتة : أن ما يراد تغييره بكفاءة عالية لا بد من أن يكون عبر منهج علمي منضبط يحكم خطوات الإنسان في جميع مراحل الدورة الإنجازية للفعل المراد استبداله ، فهو الطريق الوحيد أمام الإنسان ، لأنه يساعده علي الاستعمال الأمثل لطاقاته ووقته ، ويجنبه التيه والضلال والفوضى والتذبذب ، ومنه وحدة تحدد المقاصد والأهداف وتخطط المراحل وتختار الأدوات وتنتقي الوسائل والأساليب وفق خطة مدروسة ونظام دقيق ، وحسابات قائمة علي فهم لسنن الهداية ودراية بالواقع المراد تغييره .

فالمنهج إذا ضرورة حيوية ملحة ، لا يجوز إنكاره ولا إغفاله ، ولا التهاون فيه بأي حال من الأحوال .

وعلي ضوء ما تقدم ، فإن المفكر الواعي إذا ما أراد أن يكون له الوجود المتميز والدور الفعال في تغيير واقع مرير بواقع سليم ، لابد من سلوك المنهج السديد ، لتحقيق هذا الغرض السامي ، فهو بالنسبة له ذو قيمة عظيمة وضرورة من الضروريات الفكرية الهامة ، وبدونه لن يكون العمل الذي يقوم به أكثر من فوضى لا يضبطه نظام ، وتخبط عشوائي لا يرتبط بهدف ، وسيرة مظلمة عمياء لا تسترشد الطريق الموصل إلي الضالة المنشودة المبتغاة ولو فرض وحصل تغيير

---

[٤] أنظر / حسين عبد الحميد رشوان / العلم والبحث العلمي / دراسة في مناهج العلوم عند العرب – الناشر المكتب الجامعي بالأسكندرية ص ١٤٣ وأنظر منهج البحث العلمي عند العرب للأستاذ جلال محمد عبد الحميد موسى / دار الكتب اللبناني / بيروت ط ١ / ١٩٧٢ ص ٢٧٣ .

[٥] هذا التعريف مقتبس من الأستاذ الطيب برغوث / منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة علي منجزاتها / ص ٨٩ .

فسيكون سطحياً شكلياً صورياً وإخفاء مؤقتا للأمراض المستعصية سرعان ما تعود إلي ما كانت عليه بل أشد قسوة .
فرسول الله صلي الله عليه وسلم - وهو يتعامل مع الجاهلين وظروفهم التي كانوا يعيشونها العقدية والأخلاقية والاجتماعية ونحوها – قد استند علي منهج أصيل – وضعه له رب العالمين ورسم لنفسه برنامجاً محدد الأهداف والوسائل والأدوات والمراحل كانت كافية في حل تلك المشكلات المتأصلة في حياة العرب وإزالة ما هو باطل .
فما أحوجنا نحن المسلمين – اليوم – إلي هذا المنهج القويم الذي سلكه رسول الله صلي الله عليه وسلم للتخلص مما نعانيه من مشكلات كثيرة لا سيما وقد ظهر من يدعو من العلماء إلي ضرورة وأهمية التغيير في كثير من قضايا العالم الإسلامي ، لكي يسترجع قواه ومجده وعزته وكرامته ويتبوأ مكانته بين الأمم الأخرى ، ويدخل في دور حضاري علمي مميز ، يحقق به هويته .

المطلب الثاني

ضوابط العمل التغييري

- الضابط في اللغة :

جاء في لسان العرب : الضابط لزوم الشيء وحبسه ضبط عليه وضبطه يضبط ضبطاً وقال الليث : الضبط لزوم شيء لا يفارقع في كل شيء وضبط الشيء حفظه بالحزم ، والرجل ضابط أي حازم . [٦]
وجاء في معجم مقاييس اللغة (ض ب ط) ضبطه ضبطاً وضباطه حفظه بالحزم ، وأضبط – يعمل بيديه جميعاً [٧]
والمقصود به – علي ضوء ما جاء في قواميس اللغة العربي – الأسس والقواعد والآطر التي يلتزم بها المفكر ولا تفارقه في شيء ويحبس تغييره عليها فإذا خرج عنها ولم يلتزم بها ، فإن مشروعه في التغيير لن يجدي شيئاً .

---

[٦] لسان العرب ج ٨ ص ١٥ – ١٦ مادة ضبط .
[٧] الفيروزآبادي / إمام أهل اللغة / مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧ هـ / القاموس المحيط / توثيق يوسف محمد البقاعي / دار الفكر – بيروت ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م ص ٦٠٧ مادة ضبط – وسأشير إليه لاحقا (القاموس المحيط)

فالعمل الأول الذي ينبغي أن يقوم عليه الفكر الواعي هو : أن يعيد للإنسان المنهجية بكل ضوابطها ، حتى تصبح جزءا ً من كيانه ووجوده ، فيتحول المنهج إلي حقيقة واقعية ، وليس مجرد قواعد لا تمس إلا الجانب النظري في حياة الإنسان .

فالتلازم بين التغيير وبين هذه الضوابط أمر حتمي ، حتي يتحقق الغرض المطلوب في الواقع البشري بفاعليه وكفاءة وإليك بيان أهم الركائز والضوابط التي ينبغي الاعتماد عليها في قضية التغيير .

- فهم القرآن الكريم واستيعاب حقائقه :

من الأمور المهمة في قضية التغيير : الإحاطة والاستيعاب الواعي للأنموذج ، ولما كان المراد : القرآن الكريم ، لذا يتعين إدراكه وأستيعابه في كل ناحية من نواحيه العقيدية والسلوكية والفكرية ونحوها ، فهو حجر الأساس في الحكم علي كل هذه القضايا ، وهو الذي تقاس به القيم وتحاكم إليه العادات والتقاليد والنظم كلها قال الله تعالي (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ) سورة النساء آية ٥٩ .

ومن هنا نعلم كيف أن النبي صلي الله عليه وسلم وصحابته الكرام كانوا شديدي العناية بحفظ القرآن الكريم ودراسته وفهم معناه وتطبيقه في الواقع ، ذلك أن دراسة القرآن الكريم والوقوف علي مقاصده وأسراره وما تضمنه من شريف الأسرار دون تطبيقه أمر لا يظهر أهمية تلك الدراسة ولا ذلك الحفظ

فالواجب علي المسلم أن يطبق معاني القرآن الكريم ويجسدها في سلوكه مستندا إلي معرفة واقعية بما يقوم به ، مدركا واعيا يحققه الفعل الذي يمارسه والغاية التي ينشدها ، روى عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قال (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن : كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلي الله عليه وسلم عشر آيات لم يجتوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً [٨]

---

[٨] أنظر تفسير دقائق التفسير لابن تيميه – مؤسسة علوم القرآن – دمشق ط ٢ – سنة النشر ١٤٠٤ ط ٢ – ج ٢ ص ٢٢٧ ، وتفسير مجاهد – المنشورات العلمية بيروت ج ١ / ص ٦٨ ، وتفسير الدر المنثور للسيوطى – دار الفكر – بيروت سنة ١٩٦٢ ج ٢ / ٦٩ – وأنظر الذهبي / الدكتور / محمد حسين / التفسير والمفسرون – مكتبة وهبه – الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٥ م – الجزء الأول / ص ٥١ .

إذا الخطوة الأولي العلمية المنهجية في الجهد الدعوي هي عرض القضايا كلها الاجتماعية وغيرها علي القرآن الكريم قال الله تعالي (فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) النساء الآية ٦٥ .

فالله تعالي (يقسم بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتي يحكم الرسول في جميع الأمور ، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهراً ولهذا قال (ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) . [٩]وعلي ضوء هذا الضابط يصبح فهم حقائق القرآن ، وإدراك مغزاه ومقاصده في الخلق مناط العمل التغييري ومداره .

ومن هنا يتعين علي من يحمل دعوة الحق رسالة الإسلام أن يكون في مستوى من المعرفة بكتاب الله المجيد ، حتى يكون في استطاعته إيصال ما تضمنه من معان وأسرار وأهداف تعني الإنسان ، مدركاً حقيقة الفعل الذي يمارسه وبشكله السليم والغاية التي يحققها من القيام به ، ولنا في رسول الله أسوة حسنة في هذا المضمار ، فقد كان الأنموذج الأول ، وكذلك الصحابة الكرام الذين استوعبوا معاني هذه الأمة وتفاعلوا معها فارتقوا علي مستوى رسالتها فكانوا المعبرين الحقيقيين عن مقصدها .

والحق الذي نراه في هذه الظروف العصيبة التي يشعر فيها المسلمون بالضعف والهوان والفرقة وعدم الاستقرار لا نجد مخرجا لهم من هذا كله إلا بما أشرنا إليه آنفاً تدبر القرآن الكريم ودراسته بفهم ووعي ، ثم تطبيقه في كل نواحي الحياة تطبيقاً عملياً واعياً مبصراً مصحوباً بالقناعة التامة أنه من عند الله تعالي والاعتزاز بالانتماء إليه .

إنهم أن فعلوا ذلك أصبحوا أمة قوية عزيزة كريمة ، لها كيانها ووجودها – بل إن تطبيق القرآن الكريم وجعله حقيقة واقعة ملموسة سيكون الخطوة الأولي في المسار الصحيح لإنشاء حضارة إسلامية

---

[٩] أنظر : القزويني / محمد بن يزيد أبو عبد الله / سنن ابن ماجه / دار الفكر – بيروت – ت أحمد فؤاد عبد الباقي ج ١ / ٧ ، وج ٢ ص ٨٢٩ ، وأنظر الشيباني / أحمد بن حنبل أبو عبد الله / مسند أحمد / مؤسسة قرطبة – مصر – بدون / ١ / ١٦٥ ، وأنظر ابن كثير / أبو الفداء إسماعيل بن كثير ت ٧٧٤ / تفسير القرآن العظيم – دار الفكر – بيروت – تحقيق : محمد علي الصابوني ، المجلد الأول ص ٤١٠ وسأشتير إليه لاحقا تفسير ابن كثير .

عريقة مزدهرة وقوية مرة أخرى ، لأن تعاليم القرآن تطلب من المسلم أن يكون إيجابياُ مبادراً إلي كل فعل فيه خير ليس فحسب بل للبشرية جمعاء ، فهي تحثنا أن نتعلم كل علم مفيد حتى نستطيع أن نعمر الكون الذي جعلنا الله مستخلفين فيه لتصبح حياة الإنسان علي أكمل صورة ممكنة .

ومن الضوابط الأخرى التي ينبغي الحرص عليها : الوقوف علي الظواهر المراد علاجها فه لا يقل أهمية عن إدراك البديل الذي أشرت إليه آنفاً لأن الحكم علي الشيء فرع من تصوره .

فالذي يتولي عملية التغيير لا بد من تحديد نقطة الانطلاق في مباشرة العمل ، أعني التعرف علي واقع الإنسان من جانب ، والوضع الاجتماعي من جانب آخر ، وتكوين صورة عامة عنه ، وهذا أمر في غاية الأهمية ، لا يمكن غفلانة أو السكوت عنه ، إذ كيف نتعامل مع واقع مرير كواقع العرب – مثلاً – عند نزول القرآن الكريم ولا نعرفه ؟ هذا في الحقيقة يقتضي التردد في كيفية التعامل معه ، فإذا ما أحطنا به علماً وعرفنا أحواله ، تكيف موقفنا منه وسهل تعاملنا معه وتمكنا من التأثير فيه .

وكلما اتصفت المعلومة بالدقة والإتقان والصحة والواقعية ، واتصفت بالإحاطة والشمول ، اي كافية في إعطاء صورة صادقة مكتملة من حيث العمق عن أحوال المجتمع ، فلا شك أن هذه المعلومات التي تتصف بهذه الصفات تضمن سلامة الفهم ، وتحقق النتائج المتوخاة علي خلاف من لا يتنبه إلي التعرف علي الواقع الذي يريد تغييره فسيقع في كثير من الأخطاء المؤثرة سلباً علي سير عمله ، وسيخفق فيه ، ولن ينجز الذي يريد إذ أن تحقيق قرارات سليمة صائبة وفعالة بدون معلومات وافية كافية عن القضايا التي يريد لها حلاً ويبتغي لها علاجا أمر يصعب تحقيقه .

ومن هذا المنطلق ونظراً لأهمية المعلومات ودورها المميز في فهم الظاهر ، فقد أولاها القرآن الكريم – كما أشرت سابقاً – عناية فائقة ، واهتماماً خاصاً ، كما يتضح ذلك من قوله تعالي (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) الاسراء آية ٢٦ – (أي لا تتبع ما لا تعلم – قال قتاده – لا تقل رأيت ولم تر وسمعت ولم تسمع وقال القتبي

: لا تتبع الحس والظنون – إلي القول – فهذه الآية تنهي عن قول الزور والقذف وما أشبه ذلك من الأقوال الكاذبة والرديئة) . [١٠]
لذا يتعين علي كل من يتولي عملية التغيير ، أن تكون لديه عناية خاصة بالتعرف علي الوضع الاجتماعي ، لتحديد المراد تغيير بما هو خير ، حتى يتمكن من وضع المنهج المناسب والإمكانات المطلوبة لإنجاح عمله بإتقان ، وإذا لم تتحقق تلك المعرفة ، ويجد نفسه في احتكاك مباشر معه قد يصطدم بالواقع وهو ما يحول دون تحقيق المهمة المراد إنجازها .
ومن الركائز لضمان فعالية الإنجاز بناء – الإنسان والإعتناء به عقديا وخلقياً وقد بدأ ذلم جلياً في كتاب الله تعالي مما يدل علي هذا أهمية البعد المنهجي ، فقد أراد الله تعالي من الإنسان أن يكون مصدر خير لنبي نوعه ، لا مصدر شر ، وذلك بتهذيب نفسه وتربيتها علي الفضائل الشريفة ، والخصال الرفيعة ، والعادات الحسنة . والحقيقة أن كلمة الخلق لا تقف عند حدود ما يتحلي به الإنسان من صفات حميده أو خلال رذيلة ، ولكنها تتجاوز ذلك المعني الصغير لتشمل كل سلوك الإنسان وعلاقاته بربه أو بالناس أو بالكون وبهذا المعني الواسع امتدح الله تعالي رسوله (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم – ٤) وعبرت عنه السيدة عائشة حيتن سئلت عن النبي صلي الله عليه وسلم (كان خلقه القرآن) [١١] إذ لا يمكن لرسول الله صلي الله عليه وسلم ممارسة رسالته دون أن يتحقق فيه هذه الصفات ، وكذلك الصحابة الكرام والتابعين ومن سار علي دربهم إلي يوم الدين .
إذا قضية بناء الإنسان علي الفضيلة وتحلية بأحلي الكمالات من الأمور المهمة التي حرص القرآن الكريم علي تحقيقها ومن هنا نرى العلماء يقررون أن الإنسان هو الحقيقة الكبري التي ينبغي أن يدور حولها مشروع الفكر الحضاري الواعي ، ليكون (ذا رسالة قد حملها وعليه آداؤها لتفسير حقيقة استخلافة في الأرض معنى وقصدا) [١٢] كما

---

[١٠] القرطبي / عبد الله بن محمد بن أحمد الأنصاري / الجامع لأحكام القرآن – دار الفكر – بيروت ط ١ ١٤٠٧هـ / ج ١٠ / ص ٢٥٧ – ٢٥٨ وسأشير إليه لاحقا الجامع لأحكام القرآن .
[١١] أخرجه مسلم / كتاب صلاة المسافرين ١ / ٥١٣ رقم ٧٤٦ .
[١٢] الدريني / فتحي / خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم / الطبعة الأولي / بيروت – مؤسسة الرسالة ١٩٨٢ ص ٩١ .

يقول ابن نبي (إن الفكر الحضاري الذي لا يواجه مشكلة الإنسان ذاته فإنه فكر ما زال يدور في دوامة الجزيئات المسكنة التي لا تغير الإنسان جذرياً ، لأن الإنسان هو الشرط الأساسي لكل حضارة وأن الحضارة تؤكد دائما الشرط الإنساني . [١٣]

أجل إن الفكر المستنير يجب أن يتصدى لبناء الإنسان الذي يحمل الأمانة ومعاني الرسالة والرشاد وينمي في ذاته معاني القيم والمبادئ السامية والمفاهيم الراقية ويركز علي تكوينة الكامل الذي يحتوي علي ثلاثة عناصر مهمة .

- أولهما : التكوين العقدي :

فإذا كان يغدو من الضروري التركيز علي أمور مهمة لها تعلق بمنهج التغيير والذي تكفل في إخراج الناس من الظلمات إلي النور ، فإن الجانب العقائدي أول هذه الأمور ، وهذا ما أثبته الواقع ، فإن عقيدة الجيل الأول من صفوة الصفوة القائمة علي التوحيد ، هي التي أوصلت المسلمين إلي ما وصلوا إليه من التفوق في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ونحوها فالله تعالي لم يزين قلوبهم بحلية الإيمان الصادق ، ولاعبادة الخالصة ن والخلق السمح إلا بعد أن مهد لذلك برد عقائدهم الفاسدة وتقبيح عاداتهم الباطلة شيئاً فشيئاً وهذا في الواقع أدعي إلي قبوله وعدم رفضه .

فالعقيدة الصحيحة تؤدي إلي تعميق البعد الروحي والاتصال بالله تعالي ومعرفته القائمة علي العلم ومعرفة الله تعالي هي (حقيقة الحقائق وثمرة وجود الإنسان وغايته ، والإنسانية لا ترتقي وتسمو بالتقدم العلمي إذا لم تتبع هذا التقدم إيمانياً لأن أعلي مرتبة للإنسانية ، وأفضل مقام للبشرية هي معرفة الله تعالي وأن أزهي سعادة للأنس والجن وأحلي نعمة هي محبة الله تعالي النابعة من تلك المعرفة) [١٤] وليس من شك أن هذا النوع من العلم يغرس في النفس الإنسانية قيماً عدة ، وفضائل شتي ، وفي مقدمتها ، تقوى الله تعالي ، وملعوم أن الله تعالي قد أولاها أهمية قصوى وقيمة كبرى ، يدرك هذه الحقيقة من هو علي صلة بكتاب الله تعالي ، فقد ذكرها في أكثر من موضوع في محكم آياته وما كان ذلك إلا لما يترتب عليها من آثار مباركة فهي الخصلة

---

[١٣] بن نبي / وجهة العالم الإسلامي ص ١٧٤ .

[١٤] النورسي / بديع الزمان / المكتوبات ترجمة إحسان قاسم – الطبعة الأولي – استنبول دار سوزر للنشر ١٩٩٢ م ص ٢٨٩ .

الجامعة لخيري الدنيا والآخرة ، ولو كانت هناك فضيلة أصلح للعبد من هذه الخصلة لأمر بها عباده ووصى بها خواصه ، ولذا كان الاقتصار عليها كما صرح بذلك أفاضل العلماء . [١٥]

أجل إن تقوى الله تعالي هي التي تجعل الإنسان يستحضر قيمة وجوده في حياته ، وتهذيب نفسه وتوطنه علي الأخلاق الرفيعة سراً وعلناً ظاهراً وباطناً وتعوده علي مراقبة الله تعالي ، لتكون تصرفاته كلها في طاعته ورضاه ، وتحقيق هذه القضايا أمر مهم في تحقيق عملية الانجاز ومن هنا ندرك السبب الذي يحمل معتنقي الشريعة الإسلامية علي طاعتها في السر والعلن والسراء والضراء ، لأنهم يؤمنون بأن الخوف ومراقبة الله تعالي نوع من العبادة يقربهم إلي الله تعالي ، وأنهم يؤجرون علي هذه الطاعة وانطلاقاً من هذا المبدأ نرى الإسلام قد مزج بين أحكام الدنيا والدين ولذلك ليضمن للشريعة الإسلامية الديمومة والخلود ، وبث في المحكومين روح العبودية الحقة والطاعة الصادقة وجعل لها قوة في الردع ، ليست لأي قانون وضعي آخر مهما أحكم وضعه وأحسن تطبيقه وتنفيذه – وسنوضح ذلك بنماذج حية في المطالب اللاحقة أن شاء الله تعالي .

ولا شك أن توفير مثل هذا الجو الإيماني – بالمفهوم السابق – يساعد كثيراً إلي جانب بناء القدرات المنهجية الإجرائية علي تحقيق الموضوعية في تفسير الواقع الإنساني وهو ما يساعد دون شك في إنجاح المرحلة الأساسية الأولي في عملية التغيير ، ويحقق الأسس الرورية لنجاح المرحلة اللاحقة حينما يشرع في مباشرة تنفيذ العمل وإنجاز الأهداف المرسومة المحددية .

– الثاني : التكوين السلوكى :

ومن الأمور التي حرص الإسلام علي تحقيقها في بناء الإنسان التكيون السلوكي ، والعملي القائم علي العلم المتصل بالوحي – والحقيقة إن جعل العلم أساساً في هذه القضية أمر في غاية الأهمية لأن في ذلك استقامة لمضامينه وتوافقاً لدلالاته وعدم اختلافها وتناقضها مع الإرادة الإلهية ، وبهذا تتفتح له كنوز المعرفة ، وتتجلي أمامه ينابيع الحكمة والتفكير الذي يكون مألها الحقيقي معرفة الله تعالي ، وتجسيد هذه المعرفة في القلب والسلوك ، وإذا كان القرآن الكريم قد حرص

---

[١٥] أنظر ابن الأزرق / محمد بن علي – بدائع السلك في طبائع الملك – تونس – الدار العربية للكتاب – ١٩٧٧ م ٢ / ٨٤٤ .

علي بناء الإنسان علي التكوين السلوكى الذي مداره وأساسه الأخلاق الفاضلة ، فإن أولي فضيلة الإحسان أهمية خاصة فهي من دعائم هذه الأخلاق التي ينبغي الوقوف عندها والاهتمام بها ، لأنها تعالج أغوار المشكلات الاجتماعية بسمو أخلاقي سامق .

ويقصد بالإحسان [١٦] هنا : مفهومه الواسع الذي يضمن احترام الآخرين وحبهم والصفح عنهم والتجاوز عن أخطائهم والترفق بهم ، ولين الجانب لهم من أجل تذليل العقبات النفسية بينهم وبين الدعوة وتمهيد السبيل أمامهم للوقوف علي حقيقتها . [١٧]

فالإحسان في هذا المفهوم يعد من الثوابت في العمل الدعوي بعامة ، فله أهمية قصوى في بناء العلاقات الاجتماعية في المجتمع (١٨) ولذا نرى الكتاب المجيد قد أعطاه أهمية محورية قال الله تعالي (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) (سورة الأعراف ١٩٩) وقد جاءت هذه الآية عقب ما تعرض أليه الرسول صلي الله عليه وسلم من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطيق تحمله فأمر رسول الله صلي الله عليه وسلم (بمجامع مكارم الأخلاق التي من جملتها الإغضاء عنهم) [١٩] والحقيقة أن سمو الأخلاق الذي أشرت غليه – آنفا – لا يكون وليد الصدفة إنما يعبر عن خلق استقر في الضمير حتى غدا سجية وطبعاً تصور تصرفات المسلم دون تكلف ، وفي هذا الجانب من تهذيب النفس ما لا يخفي ، فإن الإنسان بدون أخلاق أهل الإيمان إذا اشتد باسه وقويت سلطته حمله ذلك علي التصرف مع الناس بالجور والتعسف .

ولا شك أن الانطباع الأول الذي يكونه الآخرون عن الداعي إلي الله تعالي مهم جداً فإذا كان سيئاً أعاقه وسد الطريق أمامه ، وإن كانت الآخرى بأن يكون الداعي قد تربي علي أخلاق القرآن ونقي نفسه من شوائب النقص ، واتصف بالأخلاق الرفيعة سهلت فتح الطريق أمامه وأعانته علي عملية التغيير قال الله تعالي (الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ

---

[١٦] جاء في القاموس المحيط – الإحسان ضد الإساءة والحسنة ضد السيئة ص ١٠٧٢ وفي لسان العرب الحسن ضد القبيح ونقيضه ١٢ / ص ١١٤.

[١٧] أنظر برغوث / منهج النبي في حماية الدعوة ص ٢٩٨ / ٣١٩ .

[١٨] ملك بن نبي / ميلاد مجتمع ص ٢٥ .

[١٩] أبو السعود / محمد بن محمد مصطفى العمادي الحنفي / إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولي ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م ج ٣ / ص ٧٠ وسأشير إليه لاحقا تفسير أبي السعود .

أقامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج الآية ٤١) فالله تعالي أثني عليهم قبل أن يحدثوا من الخير ما أحدثوا ، لعلمه بما انطوت عليه ضمائرهم من كرائم الخصال القرآنية . (٢٠)

ومن هنا كان لزما علي المشتغلين بالدعوة أن يولوا قضية الأخلاق بالمفهوم الواسع الأهمية الكبري في التربية حتى يعدوا بها الإنسان الواعي نفسياً وعقلياً واجتماعيا ونحوها .

- الثالث : البناء العلمي :

ومن عناصر بناء الإنسان الذي لا يقل شآنا عن العنصرين السابقين والمتعلق بمنهج التغيير (الجانب العلمي) فهو بحق يعد من الثوابت في العمل الدعوي عامة ، فله منزلة خاصة في نهضة المجتمع وتطوره ، ندرك ذلك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تحث علي العلم وتبين أهميتة ومكانته ومنزلته . (٢١)

" يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " (المجادلة الآية ١١)

علي أن العلم الذي حث عليه الشارع ليس مقصوراً علي العلوم الدينية فحسب – وإن كانت لات تضاهي لما تزود به الإنسان من طاقات إيمانية – لكنه يتسع ليشمل كل ما يفيد البشرية من العلوم العصرية ، عقلية كانت أو علوم تجريبية ، فالإسلام لم يفرق في العلم وطلبه بين تلك العلوم كلها ، فكل منها يؤكد صاحبه ويعضده ، فالعلم والدين صنوان لا يفترقان .

وإذا كان الإسلام قد حض علي طلب العلم المبني علي الأسس الصحيحة إنما كان كذلك لما يترتب عليه من مقصد عظيم وغاية نبيلة هي بناء الإنسان الصالح ، ليتمكن من القيام برسالته في الحياة والتي من أجلها جعله الله تعالي خليفته في الأرض التي تتلخص بمعرفة الله تعالي إذ أن مقياس النفع والإفادة من العلم هو مدى إسهامه في تحقيق الهدف الأكبر من خلق الإنسان ، وهو العبودية لله تعالي " وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ " (الذاريات الآية ٥٦) وما يتبع ذلك من المنافع والمقاصد .

---

(٢٠) الألوسي ١٧ / ١٤٩ .

(٢١) أنظر سورة المجادلة الآية ١١ وسورة فاطر آية ٢٨ وسورة الزمر الآية ٩ .

ومن هنا يتعين علي الدعاة خاصة وأفراد المجتمع الإسلامي عامة إذا ما أرادوا تغيير الواقع أن يتسلحوا بالعلم الشرعي وأن يصلوا إلي أرقي المستويات في شتى التخصصات العلمية الآخرى ، كما يتعين عليهم أن يشحذوا الهمم من أجل بناء الأمة الإسلامية واستنبأت العلوم من تربة التراث الإسلامي ، وعلي أيدي رجال المعرفة والفكر المستنير من أبناء المسلمين ، إنهم إن فعلوا ذلك سلكوا طريقاً سديداً في عملية التغيير وأما إذا بقي المسلمون علي ما هم عليه يعيشون في فلك العلوم الغربية ، بالإضافة غلي الظلم الذي ارتكبه الغرب إزاءهم حين فرض عليهم أنظمته التربوية الحديثة القائمة علي المادية البحتة قاصداً بذلك أن ينشيء بين المسلمين أجيالاً تتنكر لهويتها الإسلامية نلمسها في انحراف الشباب ، والتخلف العلمي المقيت الذي لحق بكثير من ابناء المسلمين ، فبغضت دينها ، ونظرت إلي تاريخها الحافل بالمعطيات نظرة احتقار واستهزاء وآمنت بأن حياتها الفكرية والعلمية أصبحت بالية لا تصلح لهذا العصر ، حتى رسخ في أذهان الكثير من المسلمين أنه لا معارف إلا ما يدون في الغرب ، ولا أخلاق إلا أخلاق الغرب .

(٢٢) نأهيك عن كارثة كبرى أخرى أن تساق مؤسساتنا التعليمة إلي المسلخ كي يراق دمها بسبب الإهمال أو عدم معالجة الأمور والمرحلة الحالية التي يمر بها التعليم في عالمنا العربي والإسلامي حساسة بدرجة كبيرة والمستجدات التي تمر بها تلقي بظلالها وتؤثر بواقعها علي الحقل التربوي والتعليمي ، فيما يقع علي المؤسسات عبء كبير في حماية قلب المجتمع النابض ، اي الشباب والشابات من جميع الانحرافات .

وأقول : إذا بقي المسلمون علي هذه الحال ، وبهذا الوضع المشين ـ وفوق كل هذا أن كثير منهم لا يدرك أهمية الدين وآثاره وأهدافه ، فكيف يتأتي لهم التغيير ؟

ولنا أن نتصور كيف تكون حال أمة دون أبنائها المتعلمين المهيئين للتجديد والتغيير ؟ ولنا أن نتصور جسداً بدون دماء ولا عقل مدبر ، اللهم ، إن هذا مستحيل لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، والظل لا يتسقيم والعود أعوج .

---

(٢٢) دراسات في الثقافة الإسلامية / تأليف الدكتور محمد عبد السلام وإخوته ، مكتبة دار الفلاح – الكويت الطبعة السادسة ١٤١٨ هـ ـ ص ٥٨ ، ٥٩ نقلاً عن مجلة البعث الإسلامي الهندية عدد صفر ١٣٨٨ هـ .

- ومن الخطواط الواضحة في منهجية الدعوة مراعاة رغبات الآخرين والتعايش مع همومهم ، فهو مؤشر قوي يدل علي مدى أهميته في ضمان فاعلية الإنجاز ، وتحقيق التحكم الأمثل في الواقع ، وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في منهج لأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبين كيف كانوا يربطون بين دعواتهم بقضايا الواقع الذي كانوا يتعاملون معه ويواجهونه باستمرار ، تأمل قوله تعالي " وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ " (هود الآية ٨٤) ، نرى أن الله تعالي – قد ربط دعوة شعيب عليه السلام بمشكلة اقتصادية – قضية المكيال والميزان ، وكذلك غيره من الأنبياء قد ارتبطت دعواتهم بجوانب متعددة من الواقع الإنساني ، مما يدل بصراحة ووضوح علي الاهتمام بهذا الضابط .

وقد سلك رسول الله صلي الله عليه وسلم هذا المنهج ، والأمثلة علي ذلك كثيرة مما يؤكد رسوخ هذه القاعدة وبروزها نجتزئ منها ، صنيعه مع أبي سفيان الذي ظل إلي وقت متأخر عدواً للإسلام ، فقد أكرمه صلي الله عليه وسلم ، وأشبع رغبته في الفخر وحب الوجاهة يوم فتح مكة ، عندما أعلن أن (من دخل دار إبي سفيان فهو آمن) [٢٣] وقد استطاع صلي الله عليه وسلم بذلك أن يستأصل الحقد من قلبه وطمأنه أن المكانة التي كانت له عند قريش لن تنقص شيئاً في الإسلام ، إن هو أخلص وبذل في سبيله . [٢٤]

وهذا موقفه صلي الله عليه وسلم مع خالد بن الوليد ، وكيف استدرجه إلي الإسلام ، فقد قال لأخيه ، وهو في مكة أين خالد ؟ فقلت ، يأتي الله به ، فقال صلي الله عليه وسلم ما مثله جهل الإسلام ، ولو كان جعله نكايته وحده مع المسلمين علي المشركين كان خيراً له ، ولقدمناه علي غيره ، فبلغ ذلك خالد بن الوليد ، وكان أخوه قد كتب له رساله يخبره بما قاله الرسول صلي الله عليه وسلم ، وحثه علي المبادره إلي الإسلام قائلا " أما بعد ، فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام ، وعقلك عقلك ، و مثل الإسلام يجهله أحدا)

---

[٢٣] سيرة ابن هشام ٤ / ٤٦ .

[٢٤] محمد رواس قلعجي / التفسير السياسي للسيرة ٣٧٢ .

(فاستدرك يا أخي ما قد فاتك وقد فاتتك مواطن صالحة) [٢٥] فزاده رغبة في الإسلام ونشطه للخروج فأجمع الخروج إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم .
قال خالد : فطلبت (من أصاحب إلي : محمد فلقيت عثمان بن طلحة ، فقلت له الذي أريد ، فأسرع الإجابة ، فخرجنا جميعاً ، فلما كنا بالهداة (إذا عمرو بن العاص بها ، فقال ، مرحبا بالقوم ، فقلنا ، وبك قال: أين مسيركم ؟ قلنا ما أخرجك فقال ، ما اخرجكم ؟ قلنا الدخول في الإسلام وإتباع محمد قال ، وذاك الذي أقدمنى قال : فأصطحبنا جميعاً حتى دخلنا المدينة ، فأنحنا بظهر الحرة ركابنا فأخبر بنا رسول الله فسر بنا فلبست من صالح ثيابي ثم عمدت إلي رسول الله ، فلقيني أخي ، فقال أسرع : فإن رسول الله قد أخبر بك فسر بقدومك وهو ينتظرك ، فأسرعنا المشي ، فأطلعت عليه ، فما زال يبتسم إلي حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة ، فرد علي السلام بوجه طلق ، فقلت إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال رسول الله " الحمد لله الذي هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا خير ، قلت ، يا رسول الله ، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معانداً عن الحق ، فادع الله أن يغفرها لي ، فقال رسول الله " الإسلام يجب ما كان قبله " قلت : يا رسول الله ، علي ذلك ؟ قال : اللهم أغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك " [٢٦]

– ومن الضوابط التي ينبغي مراعاتها :
التأني وعدم التسرع في معالجة القضايا ، وفي ذلك احترام سنة السير المرحلى في الأمور ، وفي القرآن الكريم لفتة جلية تدل علي ذلك قال الله تعالي " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ " (سورة هود آية ٧) ، وإنما خلق السماوات والأرض في ستة أيام مع قدرته تعالي علي إيجادهما دفعة واحدة في لحظة واحدة ، وقد أشار المفسرون إلي (أن ذلك يدل علي الاختيار ، لأنها إذا حدثت دفعة واحدة فربما يتوهم أن ذلك وقع علي سبيل الاتفاق والصدفة ، بخلاف

---

[٢٥] انظر السيرة الحلبية / ٢ / ٧٧٧ ، وأنظر دلائل النبوة ج ٤ / ٣٥٠ ، وأنظر ابن سعد الطبقات الكبري ٧ / ٣٩٤ .
[٢٦] أنظر الخصائص الكبري للسيوطى / ١ / ٤١٢ ، والسيرة الحلبية ٢ / ٧٧٧ ، ودلائل النبوة ٤ / ٣٥١ .

ما إذا وقع علي سبيل التعاقب ، مع موافقته المصلحية والحكمة ، فإنه يدل علي أن ذلك بإحداث محدث عظيم وقادر عليم .
ومنها : أن الفاعل إذا قدر علي إحداث شيء ، علي التعاقب والتوالي كان ذلك أقوى لعلمه وقدرته .
ومنها أنه يعلم عباده الرفق والتأني في الأمور والصبر عليها . [٢٧]
فهذا شأن الله تعالي في خلق السموات والأرض في ستة أيام ، فكيف بالمخلوق إذا ما أراد تسوية وضع شاذ ؟ فلا بد من سلوك المنهج السديد في التوجيه والإرشاد والتحرك في نطاق المستطاع ، حتى يحقق المراد .
لقد أثبت الواقع أن الفعل القسري – مهما كانت شدته – يبقي فعلاً عقيماً سطحياً ، لا يمكن أن يحقق الغرض المنشود ، بل ربما كان العكس بأن تحدث ردود فعل مضادة لا يعلم نتائجها السيئة إلا الله تعالي . وإذا كان من حكمة الله تعالي أن ينزل القرآن مفرقاً ، وأن تتم عمليات تنزيله علي الواقع المراد تغييره بتدرج حتى يمهد الطريق أمام الناس ، ويوطن نفوسهم علي الواقع الجديد ، وتسكن أفئدتهم إليه وقد أدرك الرسول ، هذه الحقيقة ، ولم تكن بعيدة عنه وطبقها في الواقع ، وسأجلي هذه القضية لاحقاً يذكر نماذج حية تدل علي ذلك إن شاء الله تعالي .

روى أن عبد الملك انتقد والده عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد في عدم الاستعجال في التغيير الاجتماعي المطلوب في عصره ، قائلاً له ، ما لك لا تنفذ الأمور ؟ فوالله لا أبالي لو أن القدوم غلت بي وبك في الحق ، فرد عليه عمر : لا تعجل يا بني ، فإن الله تعالي ذو الخمر مرتين ، وحرمها في الثالثة ، وإني أخاف أن أحمل الحق علي الناس جملة فيدفعونه جملة ، ويكون من ذلك فتنة .

---

[٢٧] انظر تفسير الفخر الرازي / دار الفكر / بيروت ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ ج ١٣ ص ١٠٤ / ١٠٥ / ١٠٦ ، وأنظر ابن عاشور / محمد الطاهر / تفسير التحرير والتنوير / الدار التونسية ١٩٨٤ م ، الجزء الثامن – القسم الأول ص ١٦١ ، وسأشير إليه لاحقاً تفسير التحرير والتنوير ، وأنظر مذكرة في تفسير سورة هود ، للشيخ عبد الحميد الشاذلي مدرس التفسير في كلية أصول الدين – جامعة الأزهر.

يعقب الشاطبي علي هذه الحادثة بالقول (وهذا معنى صحيح معتبر في الاستقرار العادي ، فكل ما كان أحرى بالمصلحة ، وأجري علي جهة التأنيس وكان أكثرها علي أسباب واقعة ، كان أوقع في النفوس ، حين صارت تنزل بحسب الوقائع) [٢٨] .

فهو يثاقب فكره وسديد رأيه ، فهم الواقع الذي يتعامل معه واستوعبه وأدرك أن الذي يحرص علي تغييره أمر لا يعين عليه إلا الله ، قد درج عليه الصغير ، وفنى عليه الكبير ، حتى حسبه الجميع أنه دين لا يرون الحق غيره ، فاستطاع بهذا الحس المرهف الدقيق أن يحدث تحولاً رائعاً في مسار الناس وتغيير ما كانوا عليه منن أوضاع شاذة رغم قصر مدة خلافته . [٢٩]

– ومن الضوابط المهمة لإنجاح عملية التغيير لا تقل أهمية عن سابقاتها :

اختيار الوقت المناسب فهو يعداً منهجياً لا مناص منه ، ولا بد من سلوكه عن أبي وائل قال : كان عبد الله يذكر الناس في كل خميس ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم ، أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم ، وإني اتخولكم بالموعظة ، كما كان النبي صلي الله عليه وسلم يتخولنا بها مخافة السآمة علينا . [٣٠] ذلك أن هناك ظروفاً قد يعيشها الفرد ، تحول دون الاستماع والإصغاء كالظروف النفسية أو الاجتماعية ، وتجعله أكثر ما يكون نفوراً عن التوجيه والإرشاد ، كما قد تمر عليه ظروف تجعله أكثر استعداداً لتلقي الحق والداعية الموفق هو الذي يدرك هذه الحقيقة ، ويحسن تقدير الموقف ، ويقدر الوقت الجيد ، فينطلق لإنجاز مهمته التي أوجب الله تعالي عليه القيام بها ، وما ظاهرة عبادة الأصنام عند العرب ، عنا ببعيد ، فقد كانت هذه الظاهرة منتشرة مهيمنة علي الواقع العربي بصورة جلية ، ومع ذلك فإن رسول الله صلي الله عليه وسلم ، لم

---

[٢٨] الشاطبي / إبراهيم بن موسي اللخمي الغرناطي المالكي / ت ٧٩٠ / الموافقات في أصول الشريعة – ضبط وتفصيل الاستاذ محمد عبدا لله دراز ، بدون تاريخ ج ٢ ص ٩٤ ٩٥ ، وسأشير إليه لاحقاً الموافقات للشاطبي .

[٢٩] أنظر ابن عبد الحكيم – سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٣٧ .

[٣٠] البخاري / الجامع الصحيح المختصر – دار ابن كثير بيروت / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ط ٢ / ج ٣ ص ٣٩ – رقم الحديث (٧٠) وأنظر مشكاة المصابيح ج ٣ / ص ٧٢ رقم الحديث ٢٠٧ ، وأنظر فتح الباري / كتاب العلم / باب من جعل لأهل العلم أياما ١ / ١٣٣ .

يباشر بتحطيم الأصنام ، بل جاء الألهي بعدم سببها ، كما قال الله تعالي " وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (الأنعام : الآية ١٠٨) .

قال الشوكاني في تفسير هذه الآية (دليل أن الداعي إلي الحق ، والناهي عن الباطل ، إذا خشي أن يتسبب عن ذلك ما هو أشد منه من انتهاك حرام ومخالفة حق ، ووقوع في باطل أشد ، كان الترك به أولي ، بل كان واجباً عليه ، وما أنفع هذه الآية ، وأجل فائدتها لمن كان من الحاملين لحجج الله ، المتصدين لبيانها للناس إذا كان بين قوم من الصم البكم الذين إذا أمرهم بمعروف تركوه وتركوا غيره من المعروف ، وإذا نهاهم عن منكر فعلوه وفعلوا غيره من المنكرات عناداً للحق ، وبغضاً لاتباع المحقين)[٣١]

سياسة حكيمة سلكها الرسول الله صلي الله عليه وسلم يفتقر إليها كثير الداعة فهو عليه الصلاة والسلام لم يتسرع في تحطيمها ، لأنه يدرك أن ظاهرة الأصنام ما هي إلا تجسيد لمحتوى عقدي ، يظل يجدد هذه المظاهرة ، يعيد تمثيلها ما لم يتغير من جذوره . [٣٢] ، فانصب جهده عليه الصلاة والسلام إلي تغيير هذا المحتوى ، ولم يلجأ إلي معالجة المظاهر والأعراض الخارجية ، وقد حقق الله مقصده في نهاية الأمر ، عند التحول العقدي والفكري والاجتماعي العميق والشامل في الواقع العربي ، وانقلب الإنسان الجديد علي جاهليته يحطمها ويبني لها أنموذج الحياة الإسلامية) [٣٣] وهذا موسي عليه الصلاة والسلام يدرك أهمية اختيار الوقت مع مراعاة التمهل وعدم العجلة في الدعوة لاستئصال تلك الظاهرة الخطيرة ، وقد نجح عليه الصلاة والسلام فعلاً في تعيين الوقت لإنجاز مهمتة في القضاء علي عبادتها والتخلص منها والتقرب بها إلي الله تعالي ، يقول الله تعالي علي لسان موسى وهو

---

[٣١] الشوكاني / محمد بن على محمد ت ١٢٥٠ هـ / فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ، دار المعرفة – بيروت الجزء الثاني ص ١٥٠ ، وسأشير إليه لاحقاً تفسير الشوكاني .

[٣٢] برغوث / الطيب / الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجتماعية الطبعة الاولي – الجزائر – مكتبة رحاب ص ٧٦ .

[٣٣] زيدان عبد الكريم / أصول الدعوة الطبعة الثالثة / مكتبة دار المنار الإسلامية ١٣٩٦ هـ ص ٤٠٩ .

يحدد موعد ومكان المواجهة مع خصومه " قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى " (طه – الآية ٥٩)
وفي سببهذا الاختيار جاء في الكشاف (قيل في يوم الزينة ، يوم عيد كان لهم في كل عام ، ويوم كانوا يتخذون فيه سوقاً ، ويتزينون في ذلك اليوم ، وإنما وأعدهم ذلك اليوم ، ليكون علو كلمة الله تعالي ، وظهور دينه ، وكبت الكافر وزق الباطق علي رؤوس الأشهاد ، وفي المجتمع الغاص ، لتقوي رغبة من راغب في إتباع الحق ، وبكل بدو وحضر ، وأشياعهم ، ويكثر المحدث بذلك الأمر ويحصل العلم في كل بدو وحضر ، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر) . [٣٤] .
ومما يدل علي أهمية اختيار الوقت قول الرسول صلي الله عليه وسلم ، لعائشة رضى الله عنها (لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فالصقتها بالأرض ، وجعلت لها بابين ، باباً شرقياً وباباً غربياً وزدت فيها ستة أذرع من الحجر ، فإن قريشاً اقتصرتها حيث بنت الكعبة) . [٣٥]
ومن القضايا المهمة التي عالجها الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم ، بسياسته الحكيمة وذكائه وفطنته قضية جهاد الكفار ، فلم يأمر بقتالهم ابتداء دفهة واحدة وإنما كان ذلك علي مراحل سلكها معهم صلي الله عليه وسلم وبيان ذلك ذلك :
إن المتتبع لتطور تشريع الجهاد في عصر نزول القرآن الكريم يجد أنه أكثر التشريعات تدرجا ومراعاة لأحوال المسلمين وارتباطاً بها من حيث القلة والكثرة ، والقوة و الضعف ، ويمكننا بالإجمال أن نبين المراحل التي مر بها تشريع الجهاد كالتالي :

- مرحلة الدعوة المكية : فقد كان جهاده صلي الله عليه وسلم في هذه المرحلة جهاداً بالصبر علي تحمل الأذى الذي يقع علي النفس والجسم .

قال تعالي (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ) (الحجر – آية ٩٤) وقد صدع رسول الله صلي الله عليه وسلم

---

[٣٤] الزمخشري / محمود بن عمر بن محمد أحمد جار الله / تفسير الكشاف / تحقيق محمد مرسى عامر / الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ ١٩٧٧ / مكتبة عبد الرحمن محمد – القاهرة ج ٤ ص ٣٧ وسأشير إليه لاحقا / تفسير الكشاف .
[٣٥] صحيح مسلم / بابا الكعبة وبنائها / ج ٢ / ٩٦٩ حديث رقم ١٢٣٣ ، وأنظر الترمذي / باب ما جاء في كسر الكعبة ج ٣ / ٢٢٤ – حديث رقم ٨٧٥ .

بالدعوة ، ولكن أنكروا عليه دعوته ونبوته ، فصبر أمتثالاً لأمر الله تعالي (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ) (الأحقاف – آية ٣٥) .

- مرحلة الإذن بالقتال : وقد جاءت هذه المرحلة في ظروف صعبة وقاسية كان يمر بها المسلمون ، حيث الهجرة وهم في حالة من الفقر وترك الديار والأموال ، كما جاء ذلك صريحاً في كتاب الله تعالي ومع ذلك لم يترك المشركون رسول الله صلي الله عليه وسلم وصحبه الكرام ، فقد لاحقوهم بتهديداتهم إلي المدينة المنورة ، فلم يزل الوضع يتأزم ، والظروف تزداد صعوبة وخطورة يوماً بعد يوم ، حتى جاء الإذن المنتظر ، إيذانا بعهد قوة ومكنة للدعوة الإسلامية ، ولم يكن هذا الإذن إلا بعد أن ازداد عدد المسلمين وقويت شوكتهم وقد نزلت آية الإذن بالقتال في نهاية السنة الأولي أو بداية السنة الثانية من الهجرة " أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ " (الحج ٣٩) وكانت الانتصارات التي سجلها التاريخ ، وما كان ذلك إلا بداية رسول الله صلي الله عليه وسلم وسياسته الحكيمة في عدم التسرع في محاربة الأعداء إلي جانب واختيار الوقت المناسب من جانب آخر ، ولو لم يكن كذلك لوقع ما لا تحمد عقباه . [٣٦]

---

[٣٦] أنظر : السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة / للدكتور محمد أبو شهبة ، والجهاد في الكتاب والسنة للأستاذ / أبو فارس محمد عبد القادر / دار الفرقان .

المبحث الثاني

التدرج في عملية الإنجاز والآثار التي تترتب علي ذلك

نزول القرآن الكريم علي النبي صلي الله عليه وسلم بواسطة جبريل ثابت بطريق التواتر ، وكان هذا النزول متدرجاً ، فما معني التدرج ؟ وما الدليل عليه من الكتاب والسنة ، وما الآثار التي تترتب علي ذلك ؟ هنا ما سأوضحه في هذا المبحث الذي ضمنته مطلبين الأول : معني التدرج ودليله ، والمطلب الثاني : أهمية التدرج والآثار الناجمة عنه .

المطلب الأول

معنى التدرج ودليله

- أولا : معين التدرج :

جاء في معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم ، درج : الدرجة نحو المنزلة ، لكن يقال للمنزلة درجة إذا اعتبرت بالصعود دون الامتداد علي البسيط ، كدرجة السطح والسلم ، ويعبر بها عن المنزلة الرفعية ، ويقال لقارعة الطريق ، مدرجة ويقال فلان يتدرج في كذا أي يتصعد فيه درجة درجة ، ودرج الشيخ والصبي درجانا مشي مشية الصاعد في درجة . [٣٧]

وفي لسان العرب

يا ليتني زرت غير خارج أم صبي قد حبا ودارج

ودرجة إلي كنا واستدرجه بمعني : أدناه منه علي التدرج . [٣٨]

والمراد به : نزول الكتاب المجيد علي النبي صلي الله عليه وسلم ، بواسطة جبريل عليه السلام مفرقاً علي حسب الوقائع والحوادث والمناسبات التي تعاقبت في حياة النبي صلي الله عليه وسلم ، خلال ثلاث وعشرين سنة وهي مدة رسالته .

- ثانيا : دليل التدرج من الكتاب والسنة :

---

[٣٧] معجم مفردات القرآن ص ١٨٨ .

[٣٨] لسان العرب / دار صابر / بيروت / الطبعة الأولي / مادة برج درج / الجزء الثاني ص ٢٦٦ .

أما دليله من الكتاب الكريم ، قوله تعالي (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (الأسراء : الآية ١٠٦) أي فصلنا بعضه عن بعض في النزول فأنزلناه منجماً ولم ننزله جملة واحدة لهذه الغاية قوله تعالي (وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا) (التأكيد بالمصدر للمبالغة ، والمعني : أنزلناه منجماً مفرقاً لما في ذلك من المصلحة ، ولو أخذوا بجميع الفرائض في وقت واحد لفروا ولم يطيقوا) (٣٩) ويقول الله تعالي (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) (الفرقان – الآية ٣٢)

(كذلك) جواب لهم (قريش أو اليهود) كذلك أنزل مفرقاً والحكمة فيه أن نقوي بتفريقه فؤادك ، حتي تعيه وتحفظه ، لأن المتلقن إنما يقوي قلبه علي حفظ العلم شيئاً بعد شيء ، وجزءاً عقب جزء ، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعيل به وتعيا بحفظه) (٤٠)

وأما ما جاء في السنة المباركة فقد ورد فيها ما يدل علي نزلو القرآن منجماً ففي الصحيحين عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال – وهو يحدث عن فترة الوحي – فقال في حديثه – بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جائني بحراء جالس علي كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالي : " يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ " (سورة المدثر : الآيات ١ – ٥) وعن عائشة رضي الله عنها إن أول ما نزل صدر صورة (أقرأ) إلي قوله (علم الإنسن ما لم يعلم) (سورة العلق : ٥) (٤٢)

---

(٣٩) تفسير الشوكاني : فتح القدير / ج ٣ ص ٢٦٤ .

(٤٠) تفسير الكشاف ج ٣ ص ١٤٧ ، العيل : الضخم من كل شيء / أنظر لسان العرب ج ١١ ص ٤٢٠ وأنظر مختار الصحاح للرازي ج ١ ص ١٧٣ .

(٤٢) المرجع السابق رقم ٣ ، وسلم / الإيمان باب بدء الوحي إلي رسول الله ج ١ / ص ١٤٠ رقم ١٦٠ .

المطلب الثاني

أهمية التدرج والآثار التي تترتب علي ذلك

بينت – آنفاً – أن الله تعالي فصل بعض القرآن عن بعض في النزول ، معللاً إنزال القرآن مفرقاً للقراءة علي الناس علي مكث ، والحقيقة ليس معناه التعليل بالقراءة علي هذا الوجه لذاتها ، بل معناه ، لما يترتب عليها من حكم جليلة ، ومنافع عظيمة ، قد بلغت من التجلي والوضوح والكشف حداً لا تخفي علي أحد جاء في الإتقان (ولالا أن الحكمة الإلهية – كما يقولون – اقتضت وصوله إليهم منجماً بحسب الوقائع لهبط به إلي الأرض جملة كسائر الكتب المنزلة قبله ، ولكن الله تعالي باين بينه وبينها ، فجعل له الآمرين ، إنزاله جملة ثم إنزاله مفرقاً تشريفاً للمنزل عليه . [٤٣]

هذا وقد لوحظ في التدرج حكم بارزة أخذت من الآيتين السابقتين الدالتين علي نزول القرآن منجماً جعلتها في قسمين :

- القسم الأول تتعلق برسول الله صلي الله عليه وسلم ، وقد ذكرت في آية الفرقان .
- القسم الثاني : تتعلق بالأمة والسير في تربيتها علي سنة التدرج وهي ما أشارت إليه آية الإسراء ، وليس في الآيتين ما ينفي أن هناك أسراراً أخرى سوى هاتين الحكمتين الأساسيتين وهاك تفصيل ذلك وبالله التوفيق .

القسم الأول

تجاوب الوحي مع الرسول صلي الله عليه وسلم

المقاصد والثمرات التي تعود علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ، من نزول القرآن الكريم عليه مفرقاً كثيرة ، لا يسمح المقام – هنا – بعرضها كلها ، لذا سأذكر ثلاثة مقاصد .

- أولا : إثبات رسالة النبي صلي الله عليه وسلم / ودليل إعجاز القرآن الكريم .

---

[٤٣] السيوطى / جلال الدين عبد الرحمن ٨٤٩ – ٩١١ م / الإتقان في علوم القرآن تقديم وتعليق – مصطفى ديب اليفا – دار ابن كثير / دمشق / الطبعة الثالثة ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م ج ١ ص ١٣٢ وسأشير إليه لا حقا الإتقان في علوم القرآن .

لقد رأة العلماء المحققون أن في تنجيم القرآن الكريم دليلاً علي إثبات رسالة النبي صلي الله عليه وسلم ، كما أن فيه حجة علي إعجاز وبيان ذلك .

أن أشق مرسل من عند الله تعالي ، وتلك مهمة لم تكن سهلة ميسورة . ذلك أن النفوس إذا درجت علي شيء وألفته لم يكن من اليسر انصرافها عنه والإلف هو الذي يعرقل دائما عمل الدعاة والمصلحين عبر التاريخ .

بدأ رسول الله صلي الله عليه وسلم – بتقرير أنه مبعوث من عند الله تعالي وأن الوحي ينزل عليه تباعاً ، فماذا كان موقف العرب مما دعاهم إليه ؟ لقد قابلوا دعوته بصراع قوي ، وتعنت شديد ـ فاق كل تصور فكان لا بد من اتخاذ أحكم الوسائل المطلوبة لمواجهة هذا التغالي في المعارضة والسخرية من دعوته .

نبههم ابتدائ إلي أ،ه ليس من المعقول أن يكون الإلف وما اعتدوا عليه مقياساً للحق (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة – الآية ١٧٠)

وأخيرا كان لابد من إفحامهم بآيات التحدي من كتاب الله تعالي المجيد ، ومعلوم أن التحدي شرط مهم من الشروط المعجزة وعنوان مميز لها ، دال عليها ، وقد سلك معهم في هذا التحدي – الذي يقوم علي التدرج – طريق الإعجاز فطالبهم أولاً أن يأتوا بمثله قال الله تعالي " فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ " (الطور : الآية ٣٤) وطمأنهم أنهم لو ارادوا الاستعانة بالجن لا مانع من ذلك ، وأن يعاون بعضهم بعضاً في هذا الإتيان وقد جاء ذلك جلياً في قوله تعالي " قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا " (الإسراء : الآية ٨٨) فلو تحقق في زعمهم أدني قدر من الصدق ، فما المانع من تقديم مثل القرآن الكريم وخصوصاً أن هناك قواسم مشتركة بينهم وبين متحديهم من حيث العربية ، وأنهم فرسان البيان والفصاحة ، فإن القدرة علي الأمر من دواعي الإتيان به [٤٤] ومع هذا كله استمروا يصفون رسول الله صلي الله

---

[٤٤] أنظر أبا السعود / محمد بن محمد بن مصطفى العمادي / إرشاد العقل السليم ج ٤ / ص ١٩٢ والألوسي ج ١٢ ص ٢٠ ، وأنظر السعدي ج ١ / ص ٢٧٨ .

عليه وسلم بالكذب علي ربه ، ونحو ذلك ، فعاد القرآن الكريم إلي تحديهم بدرجة أخف من سابقتها ومرحلة أخرى أهون ممن سبقها ، جريا علي سنة التنزيل مع الخصم ، وأسلوب التدرج في معالجة هذا الإنكار حتى يفتضح عواره ، فطالبهم أن يأتوا بعشر سور مثله فقط ، قال الله تعالي (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (هود – الآية ١٣) فإذا افترض لهم أن القرآن مفترى كما يزعمون ، فما المانع من ان يأتوا بعشر سور مفتريات ومحمد ليس أوسعهم في القول بياناً ؟ قال أهل البيان عند تفسير الآية السابقة (مفتريات) أي أنكم قد عجزتم عن الإتيان بسورة أي قطعة واحدة أو آيات من مثله ، فيما هو عليه من البلاغة والأخبار بالمغيبات والحكم والأحكام ، وادعيتم – مكابرة – أنه مفتري فارغ عن الحكم فأتوا بعشر سور مثله في مجرد البلاغة ، غير ملتزمين بحقائق المعاني وصحة المباني .[٤٥] أليس فيما تقدم من هذا التحدي في المرحلتين السابقتين دليل علي أحقية القرآن الكريم ، ودليل قاطع علي أنه كلام الله وحده ، وأن محمداً رسول الله ؟ ومع ذلك استمروا بالإنكار متذعين بحجج واهية ، فتنزل معهم تنزيلاً آخر موسعاً لهم المولي جل جلاله غاية التوسع ، حتى لا يكون لهم أدني حجة يتذرعون بها ، وحتى يسبقهم من العجز ثمالته ، ومن الخزي نهايته فطالبهم بأقل ما يكون به التحدي (بسورة واحدة) كسورة الكوثر ، أو ما يعادلها في كتاب الله تعالي " قال الله تعالي " أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ " (يونس : الآية ٣٨) فالله تعالي ينكر عليهم قولهم إن محمداً قد افتري القرآن الكريم فخاطب رسوله بقوله (قل) (تبكيتا لهم وإظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة ، إن كان الأمر كما تقولون (فأتوا بسورة مثله) أي في البلاغة وحسن الصياغة وقوة المعني علي وجه الافتراء ، فإنكم مثلي في العربية والفصاحة ، وأشد تمرنا مني من النظم والعبارة)[٤٦]

---

[٤٥] أنظر البحر المحيط ج ٥ / ص ٢٠٨ والموافقات ج ٣ / ٢٨٨ .

[٤٦] أبو السعود : محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي ت ٩٨٢ / وضع حواشيه عبد اللطيف عبد الرحمن ط ١٤١٩ , ١ هـ / ١٩٩٩ م /دار الكتب العلمية

هكذا تبين لنا بما لا مجال للشك فيه إعجاز القرآن الكريم علي أبلغ وجه وأكده لأن القرآن الكريم لو نزل دفعة واحدة لقالوا لا نستطيع معارضته ، كيف وقد نزل جملة واحدة ول أنه نزل مفصلاً قطعاً قطعاً لعارضناه ، فارد الله تعالي أن يقيم الحجة عليهم ، ويقطع عليهم دابر المعذرة والعلل ، فأنزله علي حسب الوقائع والأحداث ، وكأن الله تعالي يقول لهم : بعد نزول قطعه منه إن كنتم ترتابون في أن هذا المنزل علي هذا الوضع من عند الله تعالي فائتوا أنتم بقطعة مشابهة له .

وقد ذكرت آنفا ، أن الله تعالي تحدي الناس كافة بالقرآن الكريم علي مراتب متعددة ، ليقيم عليهم الحجة تلو الحجة ، ولو أن القرآن الكريم نزل دفعة واحدة لما أمكن تكرار التحدي في المرة تلو المرة ، وثبوت عجزه المرة بعد الأخرى .

وأيضا في تنجيم القرآن الكريم دليل علي إعجازه من وجه آخر ، حيث جاء محكم السرد ، متين الأسلوب ، قوي الأتصال ، آخذا بعضه برقاب بعض ، آخره مساوق لأوله ، وأوله موات لآخره ، فكيف استقام له هذا التناسق العجيب والسبك الدقيق علي حين أنه نزل مفرقاً ولم ينزل جملة ، بل تباعد ما بين أزمان النزول تفرق الأحداث والوقائع مدة نزول القرآن الكريم ، ونراه مع ذلك قطعة واحدة مترابطة الحلقات متآخية الفقرات ، لا تنبو كلمة عن كلمة ، ولا تنفر آية من آية ، بل كله يتصف بالفصاحة والبلاغة ولا يسمو بأسلوبه في بعض الآيات وينزل في البعض الآخر ، مما يدل علي أنه ليس من كلام البشر ، بل من كلام الله تعالي ، دل به علي مصدره وهى إلي الله تعالي موحيه ومنزله ، مالك الأسباب والمسببات ومدبر الخلق والكائنات العليم بما كان وبما سيكون . (٤٧)

بيروت ج ٣ / ص ٢٤٠ – ٢٤١ وسأشير إليه لاحقا تفسير أبي السعود وأنظر تفسير الكشاف ج ٣ / ص ١٢ .

(٤٧) أنظر الزرقاني / محمد عبد العظيم / مناهل العرفان في علوم القرآن / دار المعرفة – بيروت الطبعة الأولي ١٤٢ هـ - ١٩٩٩ ، ج ١ / ٥٩ – ٦٠ بتصريف .

ـ ثانيا : تثبيت فؤاد النبي صلي الله عليه وسلم :
من الحكم المتعلقة برسول الله صلي الله عليه وسلم من حيث نزول القرآن الكريم مفرقاً تثبت فؤاده صلي الله عليه وسلم ، بما يتجدد نزوله من الكتاب المجيد بعد كل حادثة ، لأن فيذ١لك برهانا ساطعاً ، ودليلاً قويا علي أ، الله تعالي يتولاه بعنايتة ورعايته عند كل طارئ ، وفي كل موقف ، كم أن في ذلك تجديداً لصلته به بواسطة جبريل عليه السلام ، حينا بعد حين ، وذلك كله يملأ نفسه غبطة وسروراً ، ويثبته في الشدائد ويقوي عزمه علي المضي قدماً في مهمتة الكبري المضنية وهي نشر الإسلام وتبليغ الدعوة .
وقد أشار إلي هذه الحكمة الجليلة أبو شامة في قوله (فإن قيل : ما السر في نزوله منجماً وهلا أنزل كسائر الكتب جملة ؟ هذا سؤالب قد تولي الله تعالي جوابه فقال : " وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا " (الفرقان : الآية ٣٢) يعنون كما أنزل علي من قبله من الرسل فأجابهم تعالي بقوله (كذلك) أي أنزلناه مفرقاً (لنثبت به فؤادك) أي لنقوى به قلبك ، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى بالقلب وأشد عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه ، وتجدد العهد به ، وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة .[٤٨]
هذا وقد سلك القرآن الكريم لتحقيق هذا الغرض العظيم طارقاً ما يسوقه إليه من قصص الأنبياء ، ولا هدف في أكثر المواطن التي ذكرت فيها إلا تثبيت قلب الرسول ، والفئة المباركة ، والأطمئنان بانتصار الإسلام والتنشير بانتصار الحق علي الباطل ، حيث يبين في تلك القصص الواردة : أن العاقبة إنما هي للأنبياء وصدق الله تعالي حيث قال : " وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ " (هود : الآية ١٢٠)
ومن الطرق الآخرى : حثه صلي الله عليه وسلم علي تحمل أعباء الرسالة واحتمال الأذى من المعاندين محبباً إليه التأسي بمن سبقه من الأنبياء والرسل : " فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ " (الأحقاف : الآية ٣٥) إلي غير ذلك من الآيات الكريمة .

---

[٤٨] الإتقان في علوم القرآن ج ١ / ص ١٢٣ ــ ١٢٤ ، وأنظر البرهان في علوم القرآن ج ١ / ص ٢٣١ .

كما نرى الله تعالي ينهاه عن الحزن ويعلمه أن الكافرين يعاندون الحق بغياً من عند أنفسهم كما قال الله تعالي " قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ " (الأنعام ٣٢) فأنزل الله تعالي هذه الآية (مسلياً لنبيه صلي الله عليه وسلم عن تكذيب قومه ، ومخالفتهم إياه (قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون) أي : قد أحطنا علماً بتكذيبهم لك ، وحزنك وتأسفك عليهم كقوله تعالي : " فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ " (فاطر : الآية ٨) ، (فإنهم لا يكذبوك) اي ولكنهم يعاندون الحق ، ويدفعونه بصدورهم . [٤٩] الطرق التي سلكها القرآن الكريم يتجدد نزوله في تقوية قلبه صلي الله عليه وسلم كثيرة . [٥٠]

وبعد فلو لم يتجدد نزول الوحي المسلي المؤنس له صلي الله عليه وسلم ، المرشد إلي الصبر الجميل والاقتداء بصفوة خلق الله تعالي من الرسل – ولو انقطع عنه الوحي المثبت لقلبه ، فماذا سيكون حاله عليه الصلاة والسلام ، وهو بشر يملك الأحاسيس والمشاعر ؟ في ذلك سبيل لاستيلاء الحزن علي قلبه ، واستبداد اليأس بنفسه .

ثالثا : ومن صور تجاوب الوحي مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ، قضية تربوية ، فقد كان رسول الله أمياً لا يقرأ ولا يكتب قال الله تعالي " هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ " (الجمعة : الآية ٢) فالآية تشير إلي أن الله تعالي (بعث رجلاً أمياً في قوم أميين (يتلو عليهم آياته) يقرؤها عليهم مه كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولم يعرف بتعلم وقراءة أمي آية بينة) [٥١] ففرق عليه ، لييسر عليه حفظه وفهمه .

---

[٤٩] ابن كثير / أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ت ٧٧٤ / تفسير القرآن العظيم دار إحياء الكتب العربية – عيسي الباني الحلبي / ج٢ / ١٢٩ .

[٥٠] لمعرفة المزيد من هذه الطرق يرجع إليكتب علوم القرآن آاتتية : مناهل العرفان في علوم القرآن ج ١ / ص ٣٩ ، والمدخل لدراسة القرآن للشيخ محمد أبو شهبه ، والطبعة الثالثة – دار اللواء – الرياض / ١٤٠٧ – ١٩٨٧ ص ٦٩ وكتاب البيان في مباحث في علوم القرآن للشيخ عبد الوهاب عبد المجيد غزلان – مطبعة دار التأليف – ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ ص ٦٤ .

[٥١] تفسير الكشاف / تحقيق محمد مرسى عامر / دار المصحف / القاهرة ج ١٦ ص ١١٢ .

ومعلوم أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان حريصاً علي ذلك – وقد أشرت إلي ذلك سابقاً – حتى نزل قوله تعالي " لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ " (القيامة : الآية ١٦) (أي : لا تحرك بالقرآن لسانك عند إلقاء الوحي ، لتأخذهعلي عجل ، مخافة أن يتفلت منك (إن علينا جمعه) في صدرك ، حتى لا يذهب عليك منه شيء (وقرآنه) أي إثبات قراءته في لسانك (فإذا قرأنهه) أي أتممنا قواءته عليك بلسان جبريل (عليه السلام) " فاتبع قرآنه " أي قراءته . [٥٢]

وهذا الهدف الذي أراده الله تعالي فيما أراد من حكم لنزول القرآن الكريم مفرقاً هو غاية ما توصل إليه أهل التربية في حفظ النصوص الطويلة وتسهيل فهمها ، وهذا المعني ما كان يخطر علي بال البشر في ذلك العصر ، وفي هذه البيئة البدوية الأمية مما يدل علي أن منزل القرآن الكريم علي هذه الطريقة التربوية الرائعة هو الله تعالي خالق الكون العالم بالطبائع البشرية والنفوس والأسرار " أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ " (الملك : الآية ١٤)

القسم الثاني

تجاوب الوحي مع المؤمنين

بينت – فيما سبق – أن الحكم الجليلة تقضي أن ينزل القرآن الكريم منجماً علي حسب الدواعي المتجددة والحوادث المتكررة حتى يتهيأ عقول الناس ، وتتوطن نفوسهم علي الواقع الجديد ، وتسكن أفئدتهم إليه وكنت قد وضحت في القسم الأول بعض النماذج التطبيقية المتعلقة برسول الله صلي الله عليه وسلم ، علي سبيل تأكيد قاعدة التدرج ، وفي هذا القسم سأتناول بعض الأمور الأخرى المتعلقة بالمؤمنين ، والتي حرص القرآن الكريم علي معالجتها ، مقرراً أهمية هذا المنهج السديد وأثره في تحقيق عملية الإنجاز والتغيير المذهل في الواقع الإنساني منها .

- أولا : انتزاع العقائد الباطلة ومعالجة العادات القبيحة :

كان العرب عند نزول القرآن الكريم يعبدون الأصنام ، ويشركون بالله تعالي ويسفكون الدماء ويشربون الخمر وغير ذلك من المنكرات ، فماذا فعل القرآن الكريم مع هؤلاء الذين كانت هذه عقائدهم ، وتلك

---

[٥٢] الشوكانى / محمد بن علي بن محمد / فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير / دار المعرفة – بيروت – المجلد الخامس ص ٢٣٨ وأنظر التسهيل لعلوم التنزيل ج ٤ ص ١٩٥ .

عاداتهم ؟ (والنفس يشق عليها ترك ما تعودته مرة واحدة ، والإقلاع عما اعتقدته بمجرد النهي عنه ، لأن للعقائد – حتى ولو كانت باطلة وللعادات ولو كانت مستهجنة – سلطانا علي النفوس ، والناس أسراء ما ألفوا ونشأوا عليه ، فلو أن القرآن نزلة جملة واحدة وطالبهم بالتخلي عما هو عليه منغمسون في حمأته من كفر وجهل ومنكرات مرة واحدة ، لما استجاب له أحد ، ولما وفق رسول الله عليه وسلم في أداء مهمته ، ولعاد ذلك بالنقص علي الشريعة . [٥٣] لذلك اقتضت حكمة الله تعالي في انتزاع العقائد الباطلة أولا .

وهذا مقصد عظيم من خالق الكون باتباع هذا المنهج الدقيق العميق أن ينهاهم عن عبادة غير الله تعالي ويأمرهم بالإيمان بالله تعالي وصفاته إخلاص العبودية له وحده حتى إذا ما تحقق ذلك دعاهم إلي الإيمان باليوم الآخر ، ثم الإيمان بالرسل والملائكة ، حتى إذا ما اطمأنت قلوبهم بالإيمان وأشربوا حبه أخذ بالنهي عن المنكرات بطريقة التدرج ، نلمس ذلك علي سبيل المثال مما ورد في سورة النور التي تحدثت عن كثير من العادات القبيحة المتفشية عند العرب عند نزول القرآن الكريم ، كالزنا ، واللعان ، والقذف ، وغيرها ، وكيف تمت معالجتها بل واستئصالها وتخليص المجتمع منها ، وبيان ذلك .

المتأمل لهذه السورة الكريمة يرى أنها نزلت منجمة في المدينة المنورة ، وقد رأبتدأ نزولها في أواخر السنة الأولي للهجرة ، أو أوائل السنة الثانية منها إلي النصف الثاني من السنة التاسعة للهجرة . [٥٤]

والذي يوضح ذلك قوله تعالي : " الزَّانِي لَا يَنْكِحُ " (النور : آية ٢) نزلت في قضية الصحابي مرثد بن أبي مرثد [٥٥] مع عناق المشركة التي اشتهرت بالزنا ، حتى استأذن رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يتزوج منها ، فنزلت هذه الآية ، ومرثد قد استشهد في صفر في غزوة

---

[٥٣] انظر : المدخل لدراسة القرآن الكريم – أبو شهبة ص ٧٢ وأنظر كتب التفسير الآتية الكشاف – القرطبي – والألوسي – ابن كثير في تفسير آيات الخمر .

[٥٤] تفسير التحرير والتنوير ١٨ / ١٢٩ .

[٥٥] سنن الترمذي ج ٥ / ص ٣٢٨ رقم الحديث ٢١٧٧ ، وأنظر سنن النسائي الكبري ج ٣ / ص ٢٦٩ رقم الحديث ٥٣٣٨ وأنظر الطبقات الكبري لأبن سعد محمد سعد بن كنيع أو بعد الله ت ٢٣ هـ طبعة دار أدر – بيروت – ١٣٨٠ – ١٩٦٠ م ج٢ .

الرجيع التي وقعت في السنة الثالثة للهجرة . [٥٦] فيكون أول هذه السورة قد نزل قبل سنة ثلاث في أول السنة الثانية أو أواخر الأولي .
ثانيا : الآية التي شرع بها اللعان نزلت في حادثة لعان عويمر العجلاني رضي الله تعالي عنه ، وكان لعانهما في شعبان سنة تسع للهجرة علي القول الأصح . [٥٧]
ثالثا : الآيات التي تحدثت عن آيات الإفك وما تبعها ، فقد نزلت بعد عزوة المريسيع ، وكانت الغزوة سنة ستة للهجرة علي الأرجح . (٥٨)
رابعا : قوله تعالي : " وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (النور : الآية ٣٣) فقد نزلت هذه الآية في النصف الثاني من السنة الثانية للهجرة ، وقد دل علي ذلك ما رواه الطبري رحمه الله تعالي . [٥٩]
والحقيقة أن الاسترسال في شرح ما تضمنته هذه السورة لما كان ليس من أغراض هذا البحث فهذا أمر يطول ، إلا أني أقرر أن نزولها كان مفرقاً كما تبين ذلك من أسباب نزول آياتها ، فهي تدل دلالة واضحة أنها واكبت تكوين المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة من سنواته الأولي إلي سنواته الأخيرة في عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم .
فقد تضمنت قواعد واصولا في بنائه تبرر هويته وخصائصه القائمة علي المثل العليا والمبادئ الراقية كما وضعت هذه السورة الكريمة التدابير الوقائية من أسباب الفساد ، وغير ذلك من الأهداف النبيلة والمقاصد السامية ، وما كانت هذه الأمور لتحصل لو أن هذه السورة الكريمة نزلت دفعة واحدة ، إنما الحكمة الإلهية اقتضت أن تنزل منجمة علي حسب الحوادث لتحقيق الغرض المنشود في الواقع .
- ثانيا : سياسة التدرج في التشريع ومنهجه في بيان الأحكام :

---

[٥٦] ابن حجر العسقلاني الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد / الإصابة في تمييز الصحابة / طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت مصورة عن الطبعة الأولي في مطبعة السعادة في مصر ١٣٢٨ م ج ٣ ص ٢٦٨ ، وأنظر التحرير والتنوير ج ١٨ / ص ١٣٨ – ١٤٠ .
[٥٧] ابن حجر العسقلاني فتح الباري / شرح صحيح البخاري / ج ١١ ص ٣٧٠ .
[٥٨] ابن هشام ج ٣ ، ص ٢٩٧ .
[٥٩] الطبري / الإمام أبو جعفر محمد بن جرير ت ٢١٠ / جامع البيان عند تأويل آي القرآن – طبعة دار الفكر- بيروت / ١٤٠٨ – ١٩٨٨ م ج ١٨ / ١٣٣ .

بينت – فيما سبق – أن سنة الله تعالي الحكيمة في تشريعه ، التدرج في التشريعات بتقديم الأصول علي الفروع ، والإجمال علي التفصيل ، وقد أثمرت هذه السياسة التشريعية ثمرتها وعادت علي الدعوة الإسلامية بالقبول والإذعان .

- والتدرج في التشريع قسمان :

القسم الأول : التدرج في تشريع جملة الأحكام ، بمعني أنها لم تشرع كلها إنما شرعت شيئاً فشيئاً ففي ليلة افسراء قبل الهجرة فرضت الصلاة ، وفي السنة الأولي من الهجرة شرع القتال ، ثم شرعت أحكام من النكاح كالصداق .

القسم الثاني : التدرج في تشريع الحكم الواحد ، فكثير من الأحكام لم تشرع كما هي عليه الآن من أول الأمر ، بل تدرج الشارع في شرعها ، فالصلاة ، مثلاً فرضت ركعتين أولاً ، ثم لما هاجر الرسول صلي الله عليه وسلم فرضت أربعاً .

روى البخاري ومسلم عن عروة عن عائشة رضى الله عنها قالت : فرضت الصلاة ركعتين ، ثم هاجر النبي صلي الله عليه وسلم ففرضت أربعاً ، وتركت صلاة السفر علي الأولي . [٦٠] والأمثلة علي ذلك كثيرة إلا أني أخص بالذكر عادة كانت من أكثر العادات شيوعاً وانتشاراً هي (شرب الخمر) وآبين المنهج الذي سلكه القرآن الكريم في تقرير تحريمها .

أولا : فقد أشار الله تعالي إشارة خفية إلي ذم الخمر فقال : " وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " (النحل : الآية ٦٧) فقد امتن علي عباده بما أعطاهم إياه من تلك الثمرات التي يأخذون منها سكراً ورزقاً حسناً ، فعد السكر غير الرزق الحسن ، قال أبو السعود (والآية وإن كانت سابقة النزول علي تحريم الخمر فدالة علي كراهيتها وإلا فجامعة بين العتاب وبين المن) . [٦١] ثم نزل قوله تعالي : " يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ " (البقرة : الآية ٢١٩) ، فوجه الأنظار إلي أن الحرمة إنما تقوم علي غلبة الشر ، فمهما يكن للخمر من منافع اقتصادية في المتاجرة بها ، ومن منافع أخرى ظاهرية كادعاء تحسن

---

[٦٠] البخاري : دار ابن كثير بيروت ١٤٠٧ / ١٩٨٧ ط ٣ ت مصطفى البقاء ج ٣ ، ص ١٤٣١ رقم ٣٧٢٠ / صحيح مسلم ج ١ ص ٤٧٨ رقم ٦٨٥ .

[٦١] تفسير أبي السعود ج ٤ / ص ٧٥ .

الصحة والجود والكرم أو الشجاعة ، فإن إثمها أكبر من نفعها ، فتلك علة كافية لتحريمها .
والحقيقة أن هذه الآية غيرت نفوس كثير من المؤمنين الذين كانوا يظنون أن شرب الخمر فضيلة ، وأن المفاسد والمضار التي تحويها أكثر من المنافع ، ويعد هذا أول خطوة تحريكاً للمنطق التشريعي في نفوس المؤمنين وتتبعها مرحلة أخرى ، قال الله تعالي : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ " (النساء : الآية ٤٣) ، فنهاهم الله تعالي عن الصلاة وهم سكارى ، ولما كانت الصلاة فريضة ، لابد من القيام بها ، فقد أوجب عليهم أن لا يتناولوا الخمر بكميات تسكرهم ، ليستطيعوا أن يؤدوا فريضة الصلاة خمس مرات وهم غير سكارى ، فامتنعوا عن شربها في الأوقات التي لا يفيق شاربها من سكره قبل وقت الصلاة التالية ، وبعد أن اصبحت النفوس مهيأة لترك الخمر ، وأصبحت فرص السكر نادرة بطبيعة الحال ، حرم الله تعالي عليهم الخمر في صيغة جزم فقال : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ " (المائدة : الآية ٩٠) فقالوا : انتهينا ... وانتهوا بالفعل وأصبحوا ينتظرون حدود الله تعالي في شارب الخمر ، وهكذا أفلح الإسلام في محاربة هذه العادة ، وكا كان لبشر مهما أوتي من قريحة ، وقادة وذكاء خارق وسيلان في الذهن ، ومهما أوتي من مال أن يتوصل إلي هذا الطريق الحكيم ، لأنه من صنع الله تعالي العليم الخبير (وإذا كان العالم غير الإسلامي قد أصبح الآن يفكر في تحريم الخمر ، كما أصبحت النفوس مهيأة لقبول التحريم فمعني ذلك أن الشريعة الإسلامية بما قررته من تحريم الخمر دعت الناس أن يتقدموا عصرهم بأكثرمن اربعة عشر قرناً .
وقد دعت الشريعة الإسلامية العالم إلي ترك الخمر وحرمتها علي الناس منذ القرن السابع الميلادي ، ولكن لم يستجب لهذه الدعوة ويأخذ بتحريم الخمر إلا البلاد افسلامية ، وأما ما عداها من البلاد ، فقد بقيت تحت سلطان الخمر حتى أثبت العلم المادي أخيراً أن الخمر مفسدة عظمى ، وأنها تهدم الصحة وتضيع المال وتضعف النسل ، هناك بدأت الدعوة لتحريم الخمر ، تظهر وتشتد ، وتؤلف لها الجماعات وتجمع لها الأموال ، وقد نجحت الدعوة لتحريم الخمر نجاحاً ملحوظا ، فلا يكاد يوجه اليوم بلد ليس فيه جماعات قوية تدعوا إلي تحريم الخمر ، وتجد كل تعضيد من المنكرين والمصلحين ، ويستطيع

الإنسان أن يرى أثر للدعوة إلي تحريم الخمر ظاهرة في التشريعات التي صدرت في القرن الحالى . [٦٢]
أقول : رغم أن أثر الدعوة إلي تحريم الخمر ظاهرة في التشريعات التي تصدر – بين الحين والحين – في كثير من دول العالم ، إلا أن الطريق الأمثل لم تهتد إليه مكافحة هذا الوباء القاتل ، وإنك لتصاب بالذهول وأنت تقرأ الإحصاءات عن ظاهرة الإدمان وتعاطي المخدرات ، لا أقول في العالم الغربي فحسب ، إنما يتعدى الأمر إلي العالم العربي والإسلامي ، فهي في ازدياد مضطرد ، وتنام كبير رغم الجهود الحثيثة من كل الأجهزة التي لها صلة بهذه القضية المدعومة مادياً ومعنوياً ، ومما هو معلوم أن الولايات المتحدة الأمريكية أنفقت بعد الحرب العالمية الثانية مليارات الدولارات من أجل محاربة إدمان الخمر ، ولكنها عجزت عن ذلك ، تري ما الأسباب في هذا الفشل الذريع لتخليص المجتمع من هذا الداء العضال .
تحدثت آنفاً عن الجهود الحثيثة التي تبذلها الدول من أجل التخلص من هذه الآفة ، وهذا الشيء جيد إلا أن الذي يلاحظ – وهذا ملفت للنظر – أن هذه الدعوات لمكافحة الإدمان ونحوه خلت من الجانب الديني ، وتغيب رأي الإسلام ، والشرع عن هذه القضية ، وكان من الواجب التركيز علي هذا الجانب ، وكنت قد تحدثت عن الضوابط التي ينبغي أن تعتمد إذا ما أرد المفكر أن يكون له الدور الفاعل في تغيير أمر ما يعد خطراً في المجتمع كظاهرة الخمر التي نحن بصدد الحديث عنها ومن ضوابط هذا المجتمع :
فهم القرآن الكريم واستعاب حقائقه : لأنه هو الذي تقاس به القيم وتحاكم إليه العادات قال الله تعالي :
" فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا " (النساء : الآية ٦٥) (أي ينقادور لحكمك انقياداً لا شبهة فيه بظاهرهم وباطنهم) [٦٣]
فالخطوة العلمية في جهود العلماء السابقين الداعين إلي مكافحة هذا الشر المستطير ينبغي أن يعرض أولاً علي القرآن الكريم ، ومما أشرت إليه من ذلك الضوابط بناء الإنسان الذي يحمل الأمانة ويتصدى

---

[٦٢] عبد القادر عودة / التشريع الجنائي في الإسلام مقارناً بالقانون الوضعي / مكتبة دار التراث – القاهرة / المجلد الأول – ص ٥٠ – ٥١ .
[٦٣] تفسير أبي السعود ج ٢ / ١٥٨ .

لشروط الاستخلاف في الأرض عقلياً ، فإنه ولا شك يؤدي إلي تعميق البعد الروحي والاتصال بالله تعالي والخوف منه ، واستحضار وجوده وبالتالي يقبل علي أحكام الشريعة ويقوم علي طاعتها في السر والعلن من منطق إيمانه بأن الخوف من الله تعالي ومراقبته نوع من العبودية ، يتقرب بها إليه ، وغير ذلك من الضوابط التي سبق أن جعلتها في مبحث مستقل .

فالقائمون علي محاربة ظاهرة الخمر وغيرها من العادات القبيحة ، لم يلتزموا بالمنهج السديد الذي يقوم علي أطر مهمة حتى يتسني لهم تحقيق التغيير ، علي خلاف رسول الله صلي الله عليه وسلم وصحبه الكرام ، ومن سار علي دربه فقد التزموا بها واعتمدوا بالكلية فاستطاعوا – بعون الله تعالي وتوفيقه – أن يطهروا المجتمع الإسلامي من هذه العادات السيئة .

والذي أخلص إليه من هذا المطلب :

أن الأحكام الشريعة لم تنزل دفعة واحدة ، وذلك لرعاية حال المخاطبين وعدم مفاجأتهم بتشريعات وعادات وأخلاق لا عهد لهم بمثلها ، فنزول القرآن الكريم علي هذا الوضع (أدعي إلي قبوله إذا نزل علي التدرج ، بخلاف ما لو نزل جملة ، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس ، لكثرة ما فيه من الفرائض والنواهي) [٦٤] وكما يقول الشاطبي : معقباً علي القول بأن الأحكام الشرعية نزلت منجمة ، لأنها (أقرب إلي التأسيس حين كانت تنزل حكماً حكماً ، وجزئية جزئية ، لأنها إذا نزلت كذلك لم ينزل حكم إلا والذي قبله صار عادة ، وأستأنست به نفس المكلف الصائم عن التكليف ، وعن العلم به رأساً فإذا نزل الثاني كانت النفس أقرب للانقياد له ، ثم كذلك في الثالث والرابع) . [٦٥] ووضح ذلك ما أخرجه البخاري عن عائشة رضى الله تعالي عنها (إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلي الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء لا

---

[٦٤] الإتقان في علوم القرآن ج ١ / ١٢٦ .

[٦٥] الموفقات للشاطبي ج ٢ / ص ٩٤ مرجع سابق .

تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبداً ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبدا) [٦٦]

والذي يفهم من كلام الصحابية الجليلة أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها كما ورد في الحديث الشريف أن التدرج يجمع بين الخمر والزنا ، والحقيقة أن هذه قضية تحتاج إلي بيان ، فلا ينبغي أن تمر عليها دون بين لها ، فعائشة رضي الله تعالي عنها لم تقصد أن تحريم الزنا لم يتم إلا علي مراحل ، شأنه كظاهرة الخمر التي قد حرمت دفعة واحدة لعلمها أنها نزلت دفعة واحدة ، وإنما أرادت بيان أوائل ما نزل من القرآن الكريم التي تتناول أصول الإيمان بالله واليوم الآخر ، وكون الزنا لم يحرم ابتداء لا يعني التأخير كثيراً إذ وقع تحريمه في مكة المكرمة علي كل حال ، وهذا يعني تدرج هذا التحريم إذ لم نر حالة من حالات الزنا يقر في الإسلام بأية صورة ، وإنما الذي عرف أن الإسلام أمضي أمره بتحريم الزنا بأسلوب قاطع ، كما حرم سائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق ، وقد وضح هذه المسألة الدكتور صبحي الصالح . [٦٧]

- ثالثا : سياسة التدرج في إبراز العظات :

إظهار العظات هدف مهم من أهداف نزول القرآن الكريم مفرقاً علي قلب النبي صلي الله عليه وسلم ، ويتجلي ذلك في قصص الأنبياء الواردة في كتاب الله تعالي ، فالمستقرئ لها يدرك أنها لم تنزل دفعة واحدة بل تكررت ، فتذكر القصة عدة مرات ، بالإيجاز مرة وبالإطناب أحياناً كقصة عيسي عليه السلام وقصة إبراهيم وغيرهما من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فما وجه البلاغة في هذا التكرار ؟ ولماذا لم يتم دفعة واحدة ؟ إذا نظرنا نظرة تأمل نرى أن التكرار في كتاب الله تعالي له مغزى وهدف ، وليس كالروايات القصصية التي تذكر الحوادث المتخيلة أو الواقعة ، علي خلاف ما ورد من قصص القرآن الكريم ، وهو قصص لأمور

---

[٦٦] البخاري / محمد بن إسماعيل أبو عبد الله ت ٢٥٦ / صحيح البخاري – دار ابن كثير اليمامة – ط ٣ / ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ – تحقيق مصطفي ذيب البقا – ج ٤ / ١٩١٠ رقم الحديث ٤٧٠٧ .

[٦٧] أنظر : الدكتور صبحي الصالح / مباحث في علوم القرآن – دار العلم للملايين بيروت الطبعة السادسة عشر ١٩٨٥ م ، ص ٥٧ , ٥٨ , ٥٩ .

واقعة يساق للعبر وإعطاء المثلات لا لمجرد المتعة من الاستماع " لَقَدْ كَانَ فِي قصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ " (يوسف : الآية ١١١) ولكي يتبين للقارئ الكريم أن التكرار للقصص المقصد الأول منه تعدد العبر ، نذكر انموذجاً من نماذج عدة (قصة إبراهيم) عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ، فإنها ذكرت كثيراً في كتاب الله تعالي فقد كان أبا العرب فقصصه له مقامه عندهم :

١- أول ما نذكر من هذه القصة : هو ما يربطه بالعرب ، وما كان شرف العرب به بناء الكعبة ، فقد ذكر هذا البناء الذي قام به ، وعاونه فيه أبنه إسماعيل وبإبراهيم وإسماعيل تشرف العرب بأنهم من سلالتهما ، وبالبيت الحرام اعتزوا إذ كان مثابة للناس وأمنا . [٦٨] ، ثم بين الله تعالي من بعد ذلك بعث النبي صلي الله عليه وسلم وأنه كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام .

٢- نجد بعد هذه القصة قصة النفس البشرية في نبي الفطرة إبراهيم عليه السلام إذ النفوس – ولو كانت مؤمنة – لتزداد إيمانا ، وإن كان أصل الإيمان قائماً فزيادة البيان تزيد المؤمن إيمانا وتزيد الجاحد كفراً وإلحاداً [٦٩] وأقرأ قصة طلبة زيادة الإيمان ، ومن قبل ذلك في الذكر كانت قصته مع الملك عندما ناقشه في إثبات وجود الله تعالي وقدرته عليه السلام في إفحامه إذ هو لا يؤمن إلا بالمحسوس . [٧٠]

٣- ولننتقل إلي قصة أخرى موضوعها يتعلق – أيضا – بإبراهيم عليه السلام وهو تدرج الإنسانية في الاتجاه إلي طلب الحقيقة افلهية والإيمان بالوحدانية كيف ابتدأ إبراهيم تأمله في الكون ، ليتعرف من خلاله علي عظمة الخالق ، فأول ما استرعاه نجم ساطع ، فحسبه ربه ، ولكن الرب موجود دائماً ، فلما غاب نفر منه مما زعم ، ثم لما رأي القمر ... وهكذا حتى هدي إلي أن سر الوجود ، يجب أن يكون غير هذا كله ،

---

[٦٨] أنظر الآيات التي تشير إلي هذا البناء الذي قام بأمر رباني (البقرة ١٢٤ – ١٢٨)

[٦٩] أقرا الآية الدالة علي ذلك في سورة البقرة آية ٢٦٠ .

[٧٠] أقرا الآية الدالة علي ذلك في سورة البقرة آية ٢٥٨ .

فاتجه إلي الله تعالي ، وأنظر القصة كما ذكرها الله تعالي وكما وقعت . [٧١] وهكذا نري القصة مغايره تمام المغايرة لما سبق ، وأن كانت غير معارضة لها بل هي متتمة .

٤- انتقل إبراهيم عليه السلام من الاهتداء إلي الله إلي عمل إيجابي نحو الأصنام ليحطمها ، فبعد أن نال رشده تقدم ليثبت ضلالها ، وأنها لا تضر ولا تنفع فحطمها . [٧٢] وقد ذكرت هذه القصة في غير المواضع السابقة فالنسق القرآني أقتضى أن يكون كل جزء مكونا لقصة ذات عبرة مستقلة في ذاتها .

٥- وجزء آخر من قصة إبراهيم عليه السلام صلته بأبيه ، وكيف كان حريصا عليه وأنظر الآيات التي تحكي عن إبراهيم ذلك بعد أن صار صديقاً نبياً ، تجد رفق الدعوة التي تفيض بحنان البنوة في عباراتها ولا يمكن أن يوجد في أي لغة وفي أي كلام عبارات برفق الرعاية والعطف بمثل هذه العبارات ، لأنها كلام العليم الحكيم .

هذه قصة إبراهيم عليه السلام ، ذكرناها بإيجاز شديد لكيلا يتوهم القارئ للقرآن الكريم أن فيه معاني مكررة ألفاظا مرددة ، فحكمته تعالي اقتضت ذكرها متفرقة الأجزاء في مواضع ، لتكون كل عبرة بجوار خبرها في القصة ، ولو نزلت دفعة واحدة واجتمعت في مكان واحد اختلطت العبرة بالقصة الخبرية ، وما تميزت كل عبرة تمييزاً يجعلها كونا مستقلاً مقصوداً بالذات وبقية الأجزاء التي لم نرطب قلمنا بذكرها لا تكرار فيها بل كل واحدة لها عبرتها . [٧٤]

- رابعاً سياسة التدرج في التجاوب مع الأحداث والنوازل :

تجاوب الوحي مع الأحداث مقصد مهم من مقاصد نزول القرآن الكريم مفرقاً علي قلب النبي صلي الله عليه وسلم فكلم جد جديد نزل من القرآن ما يناسبه ، وفصل من الأحكام ما يوافقه ، ويعرف هذا بأسباب النزول ويندرج تحت هذا المطلب أهداف كثيرة منها :

---

[٧١] الانعام ٧١ – ٨٠

[٧٢] انظر الآيات التي تدل علي ذلك من (٥١ – ٧٠) في سورة النساء .

[٧٤] انظر المعجزة الكبري للإمام محمد أبو زهرة / دار الفكر العربي / القاهرة – طبعة جديدة / ١٩٩٨ ص ١٢١ , ١٢٢ , ١٢٣ , ١٢٤ , ١٢٥

- أولا : التجاوب في كل ما نزل توجيها للمؤمنين وتنبيها ً وإرشادا ً لهم في حادثة وقعت أو تشريعا ً في قضية عرضت من ذلك:

١- ما وقع في صلح الحديبية من اعتراض بعض الصحابة علي بعض بنودها (أنه من أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه) في الصحيحين : أن عمر بن الخطاب قال : فأتيت رسول الله صلي الله عليه وسلم فقلت : أو لست نبي الله حقا ً قال بلي ، قلت : الست علي حق ؟ وعدونا علي باطل ؟ قال : بلي ، قلت : أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال : بلي ، قلت ففيم نعطي الدنية بديننا إذا ؟ قال : " إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري ، قلت : أو لست كنت تحدثنا أنه سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلي ، أفاخبرتك أنك تأتيه عامك هذا ؟ قلت لا قال : فإنك آتيه ومطوف به ، فلم يصبر عمر حتى أتي أبا بكر الصديق رضي الله عنه فسأله مثل ما سأل رسول الله فقال له ، يا ابن الخطاب أنه رسول الله ولن يعصي ربه ، ولن يضيعه الله أبدا ، فما هو إلا نزلت سورة الفتح علي رسول الله صلي الله عليه وسلم فأرسل إلي عمر فاقرأه أياها ، فقال : يا رسول الله أو فاتح هو ؟ قال : نعم ، فطابت نفسه . [٧٥] ترى لم لم تظهر الحكمة الإلهية التي تضمنها هذا الصلح ابتداء ، وإنما ظهرت للعيان ، وتجلت فيما بعد ، حتى أضحت آية من آيات الله تعالي الباهرة ؟

إنما كان كذلك ليظهر الفرق بين وحي النبوة والإلهام الإلهي ، وتدبير الفكر البشري ، ولقد رأينا كيف استبد الضيق والقلق بعمر ، ودهشة المسلمين لهذا الموقف من رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ولكن سرعان ما انتهت هذه الضائقة حينما تلا رسول الله سورة الفتح التي تنزلت عليه عقب الفراغ من أمر الصلح ، فهل في أدلة العقيدة دليل علي نبوة محمد صلي الله عليه وسلم أبلغ من هذا الدليل ؟

ومن الحكم الجليلة التي خفيت علي الصحابة رضوان الله عليهم من هذا الصلح أنه كان مقدمة بين يدي فتح مكة ، فقد كانت هذه الهدنة – كما قرر العلماء – بابا له ومفتاحا ً ولئن لم يكن الصحابة قد تنبهوا

---

[٧٥] صحيح البخاري / ج ٣ / ص ١١٦٢ رقم الحديث ٣٠١١ .

لهذا في حينه فذلك لأن المستقبل، غائب فيهم ، ولكن ما إن مضت فترة من الزمن حتى أخذ المسلمون يستشفون أهمية هذه الهدنة ودلت الحوادث الأخيرة علي ما أن صلح الحديبية الذي تناول فيه الرسول صلي الله عليه وسلم لقبول كل ما ألحت عليه قريش ورأوا فيه انتصاراه بسرعة لم تسبق ، وكان بابا إلي فتح مكة . [٧٦]
تلكم بعض الحكم الجليلة المتعلقة بأمر صلح الحديبية . [٧٧] ما كان لها أن تبرز في بادي الأمر ، وظهرت فيما بعد ، وهذا من الآثار المباركة الطيبة من نزول القرآن الكريم علي حسب الحوادث والوقائع ، ولم ينزل دفعة واحدة .

٢- ما وقع من أخطاء وتنبيه المؤمنين من الوقوع فيها ، ومعاودتها والنماذج علي ذلك كثيرة نذكر منها علي سبيل المثال وليس علي سبيل الحصر : ما حدث في غزوة أحد ، وما وقع في حنين ، فقد خالف الرماة في الأولي ، أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم مجتهدين ، وكانت النتيجة هزيمة المسلمين وشج وجه رسول الله صلي الله عليه وسلم وكسرت رباعيته ، واستشهد عدد كبير من الصحابة ، فأنزل الله تعالي آيات عدة تحذرهم من المخالفة ، ومبينة أخطاءهم ، وأقرأ قوله تعالي " وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ " (ىل عمران : الآية ١٥٢) وما بعدها .

أما في حنين فقد اغتر المسلمون بكثرتهم حتى قال البعض (لن نهزم من قلة) فكانت الهزيمة ، ولولا تبارك المولي جل جلاله لهم برحمته وفضله وثبات النبي صلي الله عليه وسلم وإنزال الملائكة مقوية لقلوبهم لكانت الكارثة ، تأمل قوله تعالي : ") لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ " (سورة التوبة : آية ٢٥ : ٢٧) .

---

[٧٦] انظر السيرة النبوية للعلامة أبي الحسن الندوي / دار القلم – دمشق – طبعة دار القلم ألولي / ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

[٧٧] أنظر فقة السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد البوطي ص ٢٣٤ .

وقد كانت حنين درساً قاسياً استفاد منه المسلمون ، وأدركوا أن النصر بيد الله تعالي وأن الاغترار ليس من صفات المؤمن وأخلاقه ، وغير ذلك من الأمثلة . [٧٨]

نكتفي بما تقدم بيانه مخافة الإطالة ومعلوم أن هذه الأخطاء والأغلاط لم تكن تقع في وقت واحد ، فكانت حكمة الله تعالي نزول القرآن منجماً

٣- الكشف عن خبيئة نفوس المنافقين ، وتحذير المؤمنين منهم :

من فضل الله تعالي علي عباده الطيبين الطاهرين ، أن كشف لهم أستار المنافقين وشنع عليهم في كثير من الآيات فقد كان لهم بالمرصاد فكلما بيتوا أمرا أطلع الله عليه رسوله ، أو كادوا مكيدة ردها الله تعالي في نحورهم ، أو أضمروا قولاً أظهره الله تعالي ، وطبعي أن هذه المخططات المدبرة والمسائل المبينة والأفعال والأقوال السيئة التي كانت تنبثق عنهم لم تكن طفرة واحدة ، بل كانت في أزمنة متفرقة فمن ثم جاء القرآن مفرقاً وإن شئت نماذج حية لما كان يفعله المنافقون وإظهار الله تعالي لحالهم ، فسأذكر لك نموذجين تطبيقيين ، منها علي سبيل ، تقرير قاعدة مراعاة التدرج في عملية الإنجاز ، وبيان أثرها العلمي في تحقيق عملية التحكم في الواقع كهدف أساسي للفعل الدعوي .

١- روى ابن هشام في سيرته أن غلاما لعمر بن الخطاب رضي الله عنه تنازع مع سنان بن وبر الجهني ، وهما مع جمع عند ماء المريسيع أثناء مقام النبي صلي الله عليه وسلم هناك ، وكادا أن يقتتلا ، فسمع بالأمر عبد الله بن أبي بن سلول ، فغضب وقال للرهط ممن معه ، أو فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في دارنا ، والله ما أعدنا وجلابيب قريش [٧٩] إلا كما قالوا سمن كلبك يأكلك ، والله لئن رجعنا إلي المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وعلم رسول الله صلي الله عليه وسلم بذلك

---

[٧٨] أنظر سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٦٦ , ٦٧ .

[٧٩] والله ما أ'دنا أي ظللنا يعني معاشرة الأنصار وقريش وفي رواية وجلابيب قريش هؤلاء يعني معاشر المهاجرين إلا كما قال الأول أي الأقدمون في أمثالهم سمن كلبك يأكلك أي ويقولون أجع كلبك يتبعك ، أنظر السيرة الحلبية / دار المعرفة / بيروت / ١٤٠٠ هـ / ج ٢ / ٥٩٦ .

، وكان عنده عمر رضي الله تعالي عنه ، وأشار عليه بقتله ، فقال له رسول الله " فكيف يا عمر إذا تحدث الناس ان محمدا يقتل أصحابه . [٨٠] ؟ لا ، ولكن آذن بالرحيل فارتحل الناس وذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس ، حديث زعيم المنافقين أبن أبي ، ونزلت سورة المنفقون تصديقاً للخبر عن المنافق وفيها يقول : " يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ " (المنافقون : الآية ٨) [٨١] .

ترى ألم يكن ما سمعه رسول الله مبرراً لقتل هذا المنافق ، وقد كفر بعد الإيمان وسعي في إفساد المسلمين إلا أنه صلي الله عليه وسلم استقبل الأمر بحكمة فائقة ، فتعامل معه بأريحية تامة ، بعيدة عن العاطفة المتأثرة والانفعال العابر ، ولذلك لم يستجب لبعض الصحابة فيما آرادوا ، وحرص علي تطويق هذه الحالة من بعيد ، وعزل قادة النفاق تدريجياً ، بصبر وأناة وحنكة بالغة ، حتى تهيأت ظروف التحكم في الظاهرة بشكل فعال ، فقد أمر رسول الله القوم بالمسير في وقت لم يعتادوا ، حتى يشغلهم السير عن الاجتماع علي المحادثة والكلام ، وهذا يدل علي البراعة الفائقة في سياسة الأمور ، ولقد كان من نتيجة هذه الحكمة أن أنحسر عن هذا المنافق أقرب الناس إليه ، ولده عبد الله ، الذي عرض علي رسول الله قتله ، وقال له رسول الله ما قال ، وكما ابتعد عنه ابنه انحسر كذلك عنه قومه فكانوا هم الذين يعنفونه ويفضحون أمره إذا ما أرد أن يحدث شيئاً .

من هنا نرى رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول لعمر : " كيف تري يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي : أقتله ،

---

[٨٠] أنظر صحيح البخاري / دار ابن كثير / بيروت / الطبعة الثالثة / ١٤٠٧ هـ ١٩٩٧ م / ج ٣ / ١٢٩٦ رقم الحديث ٣٣٣٠ وأنظر صحيح مسلم / دار إحياء التراث العربي / بيروت / ٤ / ١٩٩٨ رقم الحديث ٢٥٨٤ .

[٨١] أنظر سيرة ابن هشام ج ٤ / ٢٥٣ ــ ٢٥٤ ، وأنظر البداية ولانهاية لأبن كثير ج ٤ ص ١٥٧ وفتح الباري ج ٨ ص ٦٥٠ .

لأرعدت له آنف ، ولو أمرتها اليوم بقتله لقتلته ، فقال عمر ، قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة عن أمري . [٨٢]
وهذه النتائج الإيجابية الرائعة لم يكن تحقيقها ممكنا بدون اتباع هذه المرحلية والتدرج في معالجة الظاهرة النفاقية كما يراها رسول الله بما أوحي إليه .
ومن النماذج التطبيقية التي انفرد بها المنافقون (قصة الإفك) [٨٣] التي تتلخص في اتهام عائشة رضى الله تعالي عنها بالزنا من صحابي جليل والحقيقة أن هذه الآذية أشد ما تعرض إليه رسول الله صلي الله عليه وسلم من صنوف الإيذاء والتعذيب ، ويشتد الابتلاء بأن الوحي لم يسارع إلي كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين ، ولو حصل ذلك لكان مخلصاً من هذا القلق والريب ، ولكن الوحي تلبث أكثر من شهر لا يعلق علي ذلك ، ترى من الهدف من عدم التسارع إلي معرفة الحقيقة في أمر جلل كهذا ؟ لقد كانت محنة الإفك هذه منطوية علي حكمة إلهية استهدفت من الدرجة الأولي إبراز شخصية الرسول صلي الله عليه وسلم ، وإظهاره صافية نقية مميزة عن كل ما يلتبس بها ، لقد فاجأت هذه الشائعة سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم فاستقبلها كأي بشر عادي من الناس ليس له اطلاع علي غيب مكنون ولا علي قصد ملفق كاذب ، فاضطرب الناس ، وشك كما يشكون ، ويستنجد في ذلك بمشورة أهل الرأي من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .
وكان من مقتضى الحكمة الإلهية في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرد فيه صلي الله عليه وسلم أن يتأخر الوحي ، كي تتجلي حقيقتان كل منهما في غاية الأهمية :
الحقيقة الأولي : هي أن النبي صلي الله عليه وسلم لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرا من الناس
الحقيقة الثانية : هي أن الوحي الإلهي ليس شعوراً نفسياً كما أنه ليس خاضعاً لإرادته وأمنياته إذ لو كان كذلك لكان من

---

[٨٢] فقه السيرة النبوية / للبوطي ص ٢٢١ – ٢٢٢ .
[٨٣] للإطلاع علي حيثيات هذا الخبر ارجع غلي صحيح البخاري باب (لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنين والمومنات بأنفسهن خيراً) ج ٤ ص ١٧٧٤ رقم الحديث ٤٤٧٣ .

السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة . [٨٤] وهكذا فقد انطوت قصة الإفك علي حكم إلهية باهرة وتلك الخيرية التي عبر تعالي عنها بقوله : " إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ " (النور : الآية ١١) ما كانت لتحقق تلك المقاصد لو أن القرآن الكريم نزل دفعة واحدة وإنما المنهج السديد لكشف الحقيقة إنما هو التأني وعدم التعجل .

ويعد : فهذه بعض الآثار المترتبة علي نزول القرآن الكريم منجماً وهذه في الواقع ليست نهاية الحكم والأهداف والمقاصد ، فهناك لمن أحكم النظر وأجال البصر حكم وحكم .

وأخيراً أسال الله تعالي أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ، ونور صدري وأسأله التوفيق فيما بحثت : " وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ " يوسف ٥٣

وحسبي أني قصدت الحق : " إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ " (هود ٨٨)

والحمد لله رب العالمين ، وصلي الله تعالي علي نبينا الكريم محمد صلي الله عليه وسلم وعلي آله وصحبه الطيبين الطاهرين .

---

[٨٤] فقه السيرة النبوية ص ٢٢٢ / ٢٢٣ (بتصرف)

الخاتمة

ظهر لي من خلال دراستي الموجزة لهذا البحث بعض النتائج يمكن تلخيصها في النقاط الآتية :

- إن ما يراد تغييره بكفاءة لابد أن يكون عبر منهج علمي منضبط يحكم خطوات الإنسان في جميع مراحل الدورة الإنجازية للفعل المراد تغييره ، فهو الأسلوب الوحيد أمام الإنسان ، لأنه يعينه علي استعمال الأمثل لطاقاته ووقته .
- فهم القرآن الكريم وتطبيقه في الواقع لأن المفهوم الحقيق لا يتم إلا إذا تجلت هذه المعرفة الحقيقة العلمية في سلوك الإنسان الواعي ، عندها تظهر أهمية التدبر لكتاب الله تعالي .
- إن من يتولي عملية التغيير لابد له من التعرف علي واقع الإنسان ، ووضعه الاجتماعي وتكوين صورة عنه مجملة عنه ، لتحديد المراد تغييره ، حتى يتمكن من وضع منهج مناسب لإنجاح عمله بدقة وإتقان .
- الحرص علي بناء الإنسان وتربيته علي العقائد الصحيحة ، والفضائل الشريفة وفق ما جاء في القرآن الكريم وهدي النبي صلي الله عليه وسلم ، وليس من شك أن مثل هذا البناء يعد أساساً في إنجاح المرحلة الأساسية في عملية التغيير .
- التأني وعدم العجلة واختيار الوقت المناسب عوامل مهمة في قضية التغيير لأبد من سلوكها ، وكذلك عدم اللجوء إلي الفعل القسري إذ لا يمكن أن يحقق الغرض المنضود ، بل العكس بأن يحدث ردود فعل مضادة .
- أهمية نزول القرآن الكريم منجماً علي حسب الوقائع والحوادث ولامناسبات ، فقد لوحظ في التدرج حكم بارزة ، ومقاصد جليلة وثمرات عظيمى تعود علي رسول الله خاصة حيث إثبات سالته وإقامة الدليل علي إعجاز القرآن الكريم علي أبلغ وجه وأكده كما أن إتمام عملية التنزيل مفصلاً تعود بالنفع علي الناس جميعاً ويتجلي ذلك في كثير من القضايا المهمة ، منها تبديل العقائد الفاسدة والعادات السيئة ، وإرساء المبادئ وتثبيت القيم وإلقاء الإرشادات والتوجيهات ونظم الحياة كلها .

فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- الإتقان في علوم القرآن الإمام جلال الدين السيوطى ت ٩١١ هـ الطبعة الثالثة ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م – دار ابن كثير ، تقديم وتعليق الدكتور مصطفي ديب البغا .

٣- البرهان في علوم القرآن – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم – دار إحياء الكتب العربية – سوريا الطبعة الأولي – ١٣٧٦ هـ .

٤- تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ، دار إحياء الكتب العربية – عيسي ألباني الحلبي – القاهرة .

٥- تفسير البحر المحيط / للإمام محمد بن يوسف الغرناطي – ت ٧٥٤ ط . دار الفكر / بيروت ١٢٩٠ هـ - ١٩٧٨ / .

٦- تفسير البغوي المسمي معا لم التنزيل – طبعة مصطفى محمد – المكتبة التجارية الكبري – مصر .

٧- تفسير أبي السعود المسمي (إرشاد العقل السليم إلي مزايا القرآن الكريم / للإمام أبي السعود محمد العمادي ت ٩٥١ هـ - دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولي ١٤١٩ هـ ١٩٩٩ م .

٨- أنور التنزيل وأسرار التأويل ، لبي الخير عبد الله بن عمر البيضاوي ، دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولي ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ م .

٩- تفسير التحرير والتنوير / للعلامة محمد الطاهر بن عاشور ١٢٨٤ هـ طبعة الدار التونسية للنشر تونس ١٩٨٤ هـ .

١٠- تفسير الطبري المسمي (جامع البيان عن ـاويل آي القرآن) للإمام محمد بن جرير الطبري ت ٣١٠ هـ ط دار المعرفة / بيروت /

١٤٠٧ هـ ، ١٩٨٧ م وأنظر طبعة دار الكتب العلمية / بيروت / الطبعة الثالثة / ١٩٨٨ م وأنظر طبعة دار الفكر – بيروت – ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

١١- تفسير القرطبي المسمي / الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ت ٦٧١ هـ - الطبعة الأولي / دار الكتب العلمية – بيروت ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م .

١٢- التفسير القيم للإمام ابن القيم تحقيق فواز أحمد زمرلي – دار الكتاب العربي – بيروت – الطبعة الأولي ١٤٠٨ هـ ١٩٨٨ م .

١٣- التفسير الكبير للعلامة محمد بن عمر الرازي – دار الكتب العملية بيروت ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ الطبية الاولي .

١٤- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان / للشيخ إسماعيل حقي البر وسوي ت ١١٣٧ هـ ، تحقيق محمد علي الصابوني طبعة دار القلم – دمشق – الطبعة الثانية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م .

١٥- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان / للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي – الرياض الطبعة الأولي ١٤٠٤ هـ .

١٦- دقائق التفسير / لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق محمد السيد الجنيد – مؤسسة علوم القرآن – بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ

١٧- تفسير البغوي المسمي / معالم التنزيل للإمام ابن مسعود الفراء البغوي ت ٥١٦ هـ تحقيق خالد العك ومروان سوار – الطبعة الثالثة ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م دار المعرفة – بيروت .

١٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل للعلامة / الزمخشري ت ٥٣٨ هـ - دار المعرفة للنشر والطباعة ، بيروت وأنظر نسخة تحقيق محمد مرسى عامر / الطبعة الثالثة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م – مكتبة عبد الحمن محمد – القاهرة .

١٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / للعلامة ابن عطيه الأندلسي ت ٥٤٦ هـ تحقيق عبد الله الانصاري وزميله / طبعة دار الفكر العربي – القاهرة .
٢٠- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي – الطبعة الأولي دار الفكر – بيروت ١٩٨٣ م
٢١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني / للعلامة شهاب الدين السيد محمود شكرى الألوسي ت ١٢٧٠ هـ طبعة دار الفكر ببيروت .
٢٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للعلامة / الشوكاني اليماني ت ١٢٥٠ / طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت وأنظر طبعة دار المعرفة – بيروت .
٢٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل / لعبد الله بن احمد النسفي / المكتبة الأموية – بيروت .
٢٤- مذكرة في تفسير سورة هود للعلامة عبد الحميد الشاذلي – كلية أصول الدين جامعة الأزهر .
٢٥- مناهل العرفان في علووم القرآن / للدكتور صبحي الصالح – دار العم للملايين – بيروت الطبعة السادسة عشرة ١٩٨٥ م
٢٧- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني – تحقيق / محمد سيد كيلاني – دار المعرفة – بيروت – الطبعة الأولي .
٢٨- معجم مقاييس اللغة لأبن فارس / تحقيق عبد السلام محمد هارون – طبع دار الفكر – بيروت .
٢٩- تاج العروس من جواهر القاموس / للسيد محمد مرتضي الزبيدي دار ليبيا للنشر والتوزيع – بنغازي – الطبعة الأولي ١٣٨٦ هـ وانظر طبعة دار الهداية .

٣٠- تهذيب اللغة / لمحمد بن أحمد الأزهري تحقيق علي حسن هلالي / الدار المصرية وهناك نسخة محققة من الأستاذ / إبراهيم الإبياري – دار الكتاب العربي – الطبعة الأولي ١٩٦٧ م .
٣١- القاموس المحيط / لمدد الدين محمد بن يعقوب الفيرروز آبادي ت ٨١٧ هـ طبعة الحلبي وشركاه – القاهرة وأنظر النسخة المحققة من الأستاذ / يوسف محمد البقاعي / دار الفكر – بيروت – ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .
٣٢- لسان العرب لأبن منظور ، دار صادر ، وكذلك دار بيروت – بيروت ١٣٧٥ م وأنظر طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت .
٣٣- مختار الصحاح للإمام / محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي – دار الفكر العربي – بيروت .
٣٤- شرح النووي علي صحيح مسلم للإمام / يحي بن شرف النووي ، المطبعة المصرية ومكتبتها .
٣٥- شعب الإيمان للبيهقي – تأليف أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي - تحقيق / أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولي – ١٤١٠ هـ .
٣٦- البخاري المسمي (الجامع الصحيح) للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري ت ٢٥٦ هـ طبعة مصطفى ألبابي الحلبي بمصر – ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩ م .
٣٧- صحيح مسلم بن الحجاج ت ٢٦١ هـ طبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون ذكر سنة النشر .
٣٨- الطبقات الكبري لأبن سعد محمد سعد بن كنيع أبو عبد الله – ت ٢٣٠ هـ طبعة بيروت ١٣٨٠ هـ ١٩٦٠ م

٣٩ – الإصابة في تمييز الصحابة / للإمام شهاب الدين أو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني /طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت – مصورة عن الطبعة الأولي في مطبعة السعادة في مصر – ١٣٢٨ هـ

٤٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري / للمؤلف السابق – طبعة مصطفي البابي الحلبي – ١٣٧٨ هـ ١٩٥٩ م .

٤١- الموفقات في أصول الشريعة / للعلامة الشاطبي / إبراهيم بن موسي اللخمي القرناطي المالكي ت ٧٩٠ هـ ضبط وتفصيل الأستاذ محمد عبد الله دراز بدون تاريخ .

٤٢- السيرة النبوية لأبن هشام ت ٢١٣ هـ تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي الطبعة الثانية / مصطفى ألباني الحلبي – مصر – ١٣٧٥ هـ ١٩٥٥ م وأنظر طبعة / دار الجيل – بيروت / ١٤١١ هـ

٤٣- فقة السيرة النبوية للدكتور محمد سعيد البوطي .

٤٤- المعجزة الكبري للإمام محمد أبو زهرة / دار الفكر العربي / القاهرة – طبعة جديد / ١٩٩٨ م

٤٥- السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة للأستاذ الدكتور محمد أبو شهبه .

٤٦- سيرة عمر بن عبد العزيز للأستاذ ابن عبد الحكيم .

٤٧- التغيير الإسلامي للأستاذ الطيب برغوث .

٤٨- منهج النبي في حماية الدعوة والمحافظة علي منجزاتها / للأستاذ الطيب برغوث .

٤٩- التشريع الإسلامي في الإسلام مقارنا بالقنون الوضعي / للإستاذ عبد القادر عوده / مكتبة دار التراث – القاهرة .

٥٠- الدعوة الإسلامية والمعادلة الاجنتماعية ـ للأستاذ الطيب برغوث – الطبعة الأولي / الجزائر – مكتبة الرحاب .
٥١- التفسير والمفسرون لأستاذنا محمد حسين الذهبي – مكتبة وهبه الطبعة الثالثة – ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٥ م .
٥٢- خصائص التشريع الإسلامي في السياسة والحكم – للأستاذ فتحي الدريني – الطبعة الأولي – بيروت مؤسسة الرسالة – ١٩٨٢ م
٥٣- وجهة العالم الإسلامي للمفكر بن نبي .
٥٤- المكتوبات / النورسي / بديع الزمان – ترجمة إحسان قاسم / الطبعة الأولي / استنبول – دار سوزر للنشر ١٩٩٢ م .
٥٥- بدائع السلك في طبائع الملك لؤلفه محمد بن علي / تونس – الدار العربية للكتاب – ١٩٧٧ /
٥٦- ميلاد مجتمع للمفكر مالك بن نبي .
٥٧- التفسير السياسي للأستاذ محمد رواس قلعجي .

وبالله التوفيق .